المركز القومى للترجمة

والتر سكوت

قلب الأسد

تعريب: يعقوب صروف

تقديم: محمد سيد عبد التواب

المشروع القومى للترجمة

ميراث الترجمة

روايات معربة

1206

قلب الأسد

روايـــة

قلب الأسد

(رواية)

تأليف : والتر سكوت

تعريب : يعقوب صروف

تقديم : محمد سيد عبد التواب

٢٠٠٨

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

سكوت ، والتر ١٧٧١ - ١٨٣٢
رواية قلب الأسد ، تأليف : والتر سكوت ؛ تعريب : يعقوب صروف ؛
تقديم : محمد سيد عبد التواب
القاهرة : المركز القومي للترجمة ، ٢٠٠٨
٢٤٠ ص ؛ ٢٠ سم
١ - القصص الإنجليزية
(أ) صروف ، يعقوب (معرب) .
(ب) عبد التواب ، محمد سيد (مقدم)
(ج) العنـوان
٨٢٣

رقم الإيداع ٢٠٠٨/١٠٥٦٦
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 434 - 751 - 6
طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

مقدمة

١ ـ التعريب والرواية في القرن التاسع عشر

فترت حركة الترجمة بعد وفاة محمد على، وظلت راكدة حتى جاء عصر إسماعيل، فبدأت حركة ترجمة واسعة شـملت كل المعارف، ولكن كان النصيب الأكبر فيها للروايات. وممـا هو جدير بالذكر أن المؤلفات التى ترجمت فى كل علـم وفـن كانت قليلة، إلا فيما يختص بالروايات التى أخذ عددها يتزايـد نظرًا لإقبال الجمهور عليها وشغفه بها[١]. فلمـا جـاء توفيـق نشطت الترجمة أيضًا ، وقد اتجه إقبال الجمهور بصفة خاصـة إلي الروايات الأدبية، وكان للمهاجرين الشوام فى ذلك المضمار دور كبير. ولقد كان لهذه الحركة أثرها المهم فى الرواية فـى مراحلها الأولى، وأتصور أنه من المهم فى هذا السياق أن نفرق بين التعريب والترجمة؛ فالتعريب قائم على نقل البيئة التى تدور فيها حوادث العمل المترجم إلى جو عربى، وقد اتفق المعربون جميعًا على خلق هذا الجو العربى، وإن اختلفوا فيما بينهم، حيث

١) جاك تاجر: حركة الترجمة الأدبية في مـصر ، القـاهرة ، ١٩٤٦ ، ص١٤٤.

صور بعضهم جوًا عصريًا على حين رسم آخرون جوًا تاريخيًا.

وقد اقتضى هذا تغييرًا فى أسماء الشخصيات وتعديلاً فى طبائعهم وتصرفاتهم، تبعًا للجو الذى نقل إليه العمل الفنى[1]، ونظرًا لأن هذا ما حدث بالضبط فى جل الروايات التى نقلت إلى العربية، فقد فضلنا استعمال مصطلح التعريب بدل ترجمة؛ لأن المعربين تصرفوا فى أسماء الروايات، وغيروا فى أحداثها، وأخضعوها لنسق المرويات العربية كما سنرى، ويرى محمد يوسف نجم أن التعريب إنما هو: تكييف أحداث النصوص الأجنبية لتوافق بيئة عربية عصرية أو تاريخية، ويتبع ذلك تغيير أسماء الشخصيات، وتعديل طبائعهم، ومثلهم، ورغباتهم، وتصرفاتهم، بما يتلاءم مع طبيعة البيئة التى نقلوا إليها[2]، أو بعبارة أخرى نقل الحبكة بأكملها لتتناسب مع البيئة العربية؛ مما

---

١) أحمد طاهر حسنين: دور الشاميين المهاجرين إلى مصر في النهضة الأدبية الحديثة ، دار الوثبة ، دمشق ، ١٩٨٣، ص٦٩.

٢) محمد يوسف نجم: القصة فى الأدب العربى الحديث في لبنان ، دار مصر للطباعة ، القاهرة ، ١٩٥٢ ، ص١٩٧.

اقتضى تحوير سلوك الشخصيات، ليتوافق مع التقاليد المقبولة.[1]

لقد خضع المعربون طوال القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين إلى نسق الثقافة السائدة المهيمنة؛ فعبروا عن ذلك بالتخلص من كل الإشارات الحساسة التى تتضمن إيحاءات دينية وجنسية تتعارض مع هذا النسق. ولكن هذا لم يكن يشكل سوى جزء ضئيل مما غير؛ فالتغيير الرئيسى كان فى الأحداث والشخصيات، وغير ذلك، وبالتالى فقد خضعت هذا النصوص المترجمة إلى نسق آخر أكثر فاعلية وقوة هو النسق الشعبى وذوق القراء، وهذا ما أكده عبد المحسن بدر، يقول: وكانت الكثرة العظمى من المترجمين لا يكشفون عن ثقافة أدبية ناضجة، ولا يقدرون قيمة الإنتاج الذى يقدمونه، ولا يفهمون معنى الترجمة، وإنما كانوا أشبه بتجار يلبون حاجة السوق، ويقدمون إليه بضاعة فجة أحياناً، ومسروقة أحياناً، ومشوهة فى أغلب الأحايين، وأغلب ما عرب من الروايات كان من نتاج العصر الرومانسى فى الأدب الأوروبى، وقد ساد التيار الرومانسى فى الأدب الغربى فى النصف الأول من القرن

---

١) بيير كاكيا: الترجمة والتبنى، انظر: تاريخ كمبردج للأدب العربى الحديث ، جدة ، النادي الأدبي الثقافي ، ٢٠٠٢ ، ص ٦١.

التاسع عشر، وحينما عرب المترجمون الفنون الروائية لم يهتموا بالإنتاج الأكثر جودة، وإنما اهتموا بكتب أكثر شعبية وشهرة مثل والتر سكوت وإسكندر دوماس وغيرهما (...) وقدموا لذلك نوعين من الروايات التى تتجه إلى الجماهير الشعبية وترضى نزعتها الخيالية المتعطشة إلى الغريب والمدهش من ناحية وإلى الحب المغرق فى العاطفة والخيال من ناحية أخرى.

ويطلق الباحثون على هذا النوع من الرواية اسم "الرواية الخيالية"، وهذه التسمية تشمل الروايات التى ظهرت من هذا النوع فى العصر الرومانسى، كما تشمل الروايات التى تأثرت بأدب العصور الوسطى فى القرنين السابع عشر والثامن عشر، كما تشمل الروايات البوليسية التى ظهرت فى زمن متأخر نسبيًا، ويجمع بين هذه الروايات جميعًا طابع المغامرة والحب والخيال العاطفي.[١]

وأغلب الروايات التى ترجمت فى هذه الفترة تدخل ضمن هذا النوع والخصائص الفنية لهذا النوع من الرواية حسب أدوين موير؛ حيث وصفه بأنه يعتمد على فضول القارئ، ويقدم سلسلة من الحوادث العجيبة لا ارتباط بينها، وتسير الأحداث فيه

---

١) عبد المحسن طه بدر: تطور الرواية العربية الحديثة في مصر، دار المعارف، ١٩٩٢، ص ١٣٦.

لإشباع فضول القارئ، وهى تتفق مع رغباته ولا تتفق مع معرفته، والنهاية فى الغالب تكون نهاية سعيدة، والأبطال فيه إما أخيار بصورة مطلقة أو أشرار بصورة مطلقة.

والبطل الخير يمر فى الرواية بسلسلة من الأخطار والمغامرات، ونحن نتقبل الأخطار التى يمر بها البطل من غير شعور بالمسئولية أو الخوف؛ لأننا نعتقد بأنه سيتخلص منها، وكل اهتمامنا فى مثل هذه الروايات يكون منصبًا على الحدث وكيف يتعقد وكيف يحل، والشخصيات لا ترسم بعناية، وذلك لأن الكاتب يخضعها إخضاعًا كاملاً للحدث، والبطل فى هذه الرواية يهرب غالبا من الحياة، ولكنه يرجع فى النهاية إليها ليتمتع بها دون أن يصاب بأذى ولو كان ضئيلاً، ويمكن أن يقع الموت فى هذا النوع من الروايات، ولكن الأشرار وحدهم هم الذين يموتون أو يقتلون ... وهو يصف هذه الروايات أخيرًا بأنها أكثر عددًا من غيرها.[١]

يقول يعقوب صرّوف في خاتمة روايته "**قلب الأسد**":

"وقد لخصنا هذه الرواية من رواية إنكليزية شهيرة اسمها "**الطلسم**" لـ والتر سكوت، وتصرفنا فيها بزيادة، وإسقاط،

١) المرجع السابق، ص١٣٧.

وتغيير، وإبدال، لتوافق ذوق القراء في هذه البلاد. وفي النص السابق يعترف المعرب بأنه قد غير في أحداث الرواية بما يتوافق مع ذوق القراء.

ولعل السؤال المهم هنا ترى على أى أساس قام **اختيار هؤلاء المترجمين والمعربين لتلك الروايات؟**

وفى حقيقة الأمر لا يوجد أساس واحد بنى عليه هؤلاء المعربون انتخابهم لتلك الروايات اللهم إلا ذوق الجمهور، من هنا يمكننا أن نقول بأنهم كانوا معتمدين على اختيارهم الشخصى مع ما يتلاءم مع الجمهور؛ حيث كانت تعريبياتهم تقوم على مدى معرفة الواحد منهم باللغة التى ينوى الترجمة عنها، وقد كان لهذا الاختيار الشخصى أثره فى أسلوب الترجمة والطريقة التى سار عليها؛ فنحن لا نكاد نعثر على تصريح من أحد منهم بذكر طريقته فى الترجمة، فقد أعطى لنفسه الحق فى أن يغير ، بل يحذف فى بعض الأحيان ما يشاء.

وواضح أن عملية التعريب كانت تتم بلا ضوابط وبلا نظام، وهذا ما أكده أحمد فهمى فى مقدمة روايته "جناية أوروبا على نفسها والعالم"، يقول: والذى يؤسف عليه ويستوجب التعنيف غير انصباب أدبائنا على التعريب كونهم لا ينتقون الموضوع بل هم يصرفون أوقاتهم الثمينة ويجهدون قرائحهم

الزكية فى تعريب أى كتاب تلقيه الصدفة بين أيديهم بلا انتقاء ولا اختيار سواء كان موافقاً لنا أو غير موافق، ولكن لا ألـوم المعربين على ذلك لأن لهم العذر فيه، حيث لم يقبلوا عليه كل هذا الإقبال العظيم إلا لما آنسوه من انصباب القراء منا على كل معرب وابتعادهم عن كل مؤلف وهو من حسن حـظ الأجنبـى وامتيازه الذى نألم منه، وهذا أقبح ما نميل إليه.[1]

وفى النص السابق إشارة مهمة عن تحول القـراء إلـى الروايات المعربة وإقبالهم عليها، وهذا ما يؤكد ما أشرنا إليـه سابقا بأن حركة التعريب بأكملها كانت تخضع لذوق الجمهور.

ولعل أقدم ما وصلنا من ذلك هو تعريب محمد مـصطفى لرواية فولتير الموسومة " مطالع شموس السير فـى وقـائع كارلوس الثانى عشر"، وقد صدرت عن مطبعة بولاق فى عـام ١٨٤٢، ثم المعربات التى نشرتها جريدة حديقة الأخبار بدايـة من عام ١٨٥٨، ثم تعريب بطرس البستانى لرواية روبنـسون كروز لـ دانيال ديفو عام ١٨٦١، بعنوان "التحفة البستانية فى الأسفار الكروزية" وتعريب لرواية "الكونت دى مونت كريستو"

---

١) أحمد فهمى: جناية أوروبا على نفـسها والعـالم، المقدمـة، مطبعـة المعارف، مصر، ١٩٠٦.

لـ إسكندر دوماس قام به سليم صعب في عـام ١٨٦٦، ثـم تعريب الطهطاوى لرواية فينلون فى عام ١٨٦٧م، ثم تعريـب ثانٍ قام به بشارة شديد لرواية الكونت دى مونت كريستو فـى عام ١٨٧١، ثم تعريب محمد عثمان جلال لـ بول وفرجينـى فى عام ١٨٧٢ ، ..... إلخ .

هذه بعض النماذج القليلة للمعربات التـى سـادت تلـك الفترة، والجدير بالذكر أن انتشار الصحف والمجلات سـاعدت على نشر هذه المعربات بين جمهور القراء؛ حيث لـم يقتـصر الأمر على إصدار الروايات على شكل كتب؛ فالمجلات المعنية بالأدب، وبخاصة القصص منـه، اهتمـت بالروايـة اهتمامًـا واضحًا، نشرًا ونقدًا وعرضًا وتنويهًـا، وبـين عـامى ١٨٦٠ و١٩١٤ أشارت مجلات أدبية ونوهت بـ ٢٥٠ رواية مؤلفـة على أقل تقدير و ٢٣٧ رواية مترجمة.(١)

والسمة الغالبة على مثل هذه الروايات المعربة، أنها كانت ذات أسلوب ركيك هزيل مليء بكثير مـن الأخطـاء النحويـة والصرفية، فطانيوس عبده – وهو من كبار مترجمى الروايـة لتلك الفترة أو شيخ المعربين– فيصفه صديقه (كرم ملحم كرم)

---

١) علي شلش: نشأة النقد الروائي في الأدب العربـي الحـديث ، مكتبـة غريب ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص١٠.

بقوله: ولم تكن الترجمة فى عرف طانيوس عبـده سـوى أداء المعنى وهيهات، وهو شر ابتلى به؛ فالمنشئ مع الثقاتـه إلـى المعنى يضن بالمبنى أن يهون وقد نضده فى ديباجـة مختـارة اللفظ مشرقة الصياغة، مما أهمل طانيوس عبده حتى كاد يكون والمؤلف على أميال رحاب، وعذره أنه يجنح إلى كسب رزقـه وما هو بالقدر السوى، وعذره أن ما نقل عن الفرنسية ليس من الراوئع، ولم يترجم فى معظم ما نقل غيـر القـصص العـام المتوارى فى رحبه الأدب السمين، وليس يعتصم بمتعه البقـاء (...) ولا يلبث أن يطوى الكتاب ويميل على ترجمته بما تراءى له منه، ويكتب الصفحات تلو الصفحات دون أن ينعم النظر فيما خطت يمينه، بل يكتب بلغة واهية إلا أنها واضحة؛ فلا تعلو لغة العامة بغير انطباقها على أحكام النحو، وحجته أن القصة يجب تذليل معانيها لكل ذهن لئلا يتحاماها من تقهقر عن النفاذ إلـى صفايا البيان.[1] فكرم ملحم كرم يصف طانيوس عبده بجميـع العيوب التى تتصف بها الترجمة الروائية فى هذه الفترة من عدم الإجادة للغة وتلبية طلبات السوق والجرى وراء الكسب المادى وعدم احترام النص، وعامية التعبيـر بحجـة التـسهيل علـى القارئ.[2]

---

١) محمد يوسف نجم: القصة فى الأدب العربي ، مرجع سابق ، ص٧٧.

٢) عبد المحسن بدر: تطور الرواية العربية الحديثة ، مرجع سابق ص١٢٩.

ويرجع محمد يوسف نجم ذلك لسببين: أولهما جهل القراء بقواعد اللغة وأساليبها والبحث عن لغة بسيطة وقصة مسلية. وثانيهما: عدم اهتمام المترجمين باللغة، وعدم انصرافهم لتعلمها وضبطها لضيق الوقت بالنسبة لهم، وحاجة الدوريات الملحة للروايات المترجمة، ولهذا كانوا لا يتقيدون بالأصل المترجم، وكثيرًا ما كانوا ينحلون بعض القصص ويدعونها لأنفسهم بعد تحوير يسير يجرونه فيها، فمنهم من يأخذ الأقصوصة أو القصة، ويستهلونها بعبارات معروفة، مثل أخبرني صديق عاد من بلاد كذا ...... أو حكى أن ...... ليوهم القارئ أنها من وضعه ثم ينقل الأصل نقلا حرفيًا مشوهًا ممسوخا، على أسلوب الترجمة المعروف فى ذلك العهد.[1]

كل هذا صحيح ولكن الأمر الذى لم يلتفت إليه محمد يوسف نجم وهو يفسر هذه الظاهرة هو تحليل هيمنة السياق الثقافى السائد فى تلك الحقبة، وما بعدها ذلك السياق المشبع

---

١) محمد يوسف نجم: القصة فى الأدب العربى الحديث، مرجع سابق ، ص ٧٦

بالآليات الشفوية الحرة التى أشاعتها المرويات السردية، وهى الآليات التى صاغت وعى المعربين فامتثلوا لها، وحينما قاموا بالتعريب كانت ملازمة لهم كجزء من ممارسة شائعة، لم يجر التفكير فى ماهيتها؛ فالتعريب لم يكن مدفوعًا بهدف التعريف الدقيق بالآثار السردية العالمية كما هى، إنما بفكرة تكييفها للنماذج الكبرى السائدة فى الآداب السردية العربية الشائعة فى القرن التاسع عشر(١) ، شمل هذا التكييف المقاصد الأخلاقية العامة لتلك النصوص بحيث تتوافق مع القيم التقليدية، وشمل أيضا الخصائص الفنية لها. فعندما نقرأ إحدى هذه الروايات المترجمة يمكننا أن نلاحظ هذه الخصائص، وتمثل مقدمة "خليل زينية" في روايته "تاجية" التي أصدرها ١٨٨٤ شاهد عيان لما كان يحدث في عملية التعريب.

يقول: عندما رأيت رواج سوق الروايات في هذا العصر (...) رأيت أن أتحف خلاني برواية غرامية الموضوع أدبية المغزى كنت قد طالعتها في اللغة الفرنساوية تحت عنوان "خريستين" وهي لا تزيد على العشر صفحات، فبسطتها ما احتمله

---

١) عبد الله إبراهيم: السردية العربية الحديثة ، المركز الثقافي العربي ، الدار البيضاء ، ٢٠٠٣ ، ص ٣٢، ٣٤.

المقام، وزدت في نكاتها، وغيرت ما لم أجــده موافقًــا لــذوق العصر، وخالفت المؤلف في روايتها فنفيت التنجيم بعد أن أثبته فلست أعرف ماذا أسميها أتعريبًا أو تأليفًا؟ على أنتـــي أرى أن اسم التأليف أليق بها من التعريب، فإن من تصفح أصلها بعــد مطالعتها، يرى ما بينهما من الفرق الواضح، والبعد الشاسع.[١]

وواضح في النص السابق، أنه لم ترد أي إشــارة عــن مؤلف الرواية الأصلي وإن كنا أصلاً نشك في كونها روايــة؛ فهي حسب ما أورده "خليل زينية" لم تزد عن عشر صفحات بما يعني أنها أقرب إلى القصة القصيرة؛ لذا فقد بسطها ليجعل منها رواية، وحذف ما رآه مخالفاً لذوق العصر، وكما هو واضح فقد غيَّر النص كاملاً، ولكن ما قام به خليل زينية، كان فعلاً عاديًــا بكل معنى الكلمة في النصف الثاني من القرن التاســع عــشر وحتى الربع الأول من القرن العشرين، وقد لجأ إليه من قبــل، بدرجات متفاوتة نخبة من المصريين، مثل: بطرس البــستاني، والطهطاوي، ومحمد عثمان جلال، ومحمد فكري، وصولاً إلى حافظ إبراهيم والزيات والمنفلوطي وغيرهم.

---

١) خليل زينية، ناجية، بيروت، المكتبة العلمية، ١٨٨٤، انظر المقدمة.

وبدلاً من أن يستفيد هؤلاء المعربون من تلك النصوص ومن تقنياتها الفنية فقد كان ثمة تأثير معكوس؛ حيث أخضعوا هذه النصوص المعربة إلى نسق وذائقة الموروث الشعبي آنذاك.

وكان المعرّبون يستجيبون لذوق الجمهور، فأدّى الأمر إلى الحفاظ على طابع السرد الذي يميز الحكايات الشعبية، فاتجهوا في غالب الأحيان إلى حذف الحوار، وتفاصيل الصور في الحدث مكتفين بذكر الخطوط العريضة للأحداث، ومستبدلين بالحوار السرد كما أنهم – خضوعًا منهم للذوق الشعبي – كثيرًا ما يترجمون المواقف الحساسة بالشعر، ويستشهدون به في رواياتهم.. وقد جاء بناء العقدة في هذه الروايات أقرب إلى بناء العقدة في القصص الشعبي من حيث تراكم الحوادث وتراكبها واقتصار المغامرة فيها على الوقائع الحربية.[١]

والملاحظة الجديرة بالانتباه في هذه الفترة المبكرة من تاريخ التعريب هي أن بعض المعربين الأوائل أعلنوا عن ضيقهم بالأساليب المتكلفة الشائعة في المدونات النثرية التقليدية التي يغلب عليها التصنع البلاغي المعروف ؛ فقد أشار فيليب طرازي أن " سليم دي نوفل "، وهو أحد رواد التعريب الذي

---

١) عبد المحسن طه بدر، تطور الرواية العربية الحديثة ، مرجع سابق ، ص ١٣٥و ١٤٨.

عرب رواية المركيز دي فونتاج ورواية الجرجسين ونشرهما على التوالي في عامي ١٨٥٨ ، ١٨٥٩ في جريدة حديقة الأخبار كان يرى أن السجع والشعر على الطريقة القديمة أشد العوامل الحائلة دون ارتقاء الكتابة [١] .

ومهما يكن من أمر فيما يخص عمليه التعريب وما نأخذه على هؤلاء المعربين من تحوير وتغيير، فإننا لا ننكر ما كان لعملهم من الأهمية فى تاريخ أدبنا الحديث ، وتبدو إشارة "محمد يوسف نجم " ذات أهمية فى هذا السياق يقول :عندما بدأ هؤلاء ينقلون آثار الغرب إلى لغتنا، لم يكن للقصص عندنا شأن يذكر .

وقد كان الأدباء يحتقرون كتاب القصة ،ويعدونهم فئة متخلفة من ذوى المواهب الهزيلة "، وقد بدأت نهضتنا الأدبية الحديثة ، والقراء لا يعرفون القصة ، والأدباء يكتبون المقامات، ولا يقرءونها إلا قليل ممن أوتوا القدرة على تفهمها وتذوق أسلوبها .

أما بعد انتشار القصص عن طريق الترجمة والصحف ، فقد تغيرت وجهة نظر الأدباء إليه وفهموا نظريته ، وبخاصة

---

١) راجع فيليب دي طرازي ، تاريخ الصحافة العربية ، بيروت ، جـ٢ ، ص ١٥٧ وراجع : عبد الله إبراهيم السردية العربية الحديثة مرجع سابق ص ١٢١ . .

الذين يجهلون اللغات الغربية، وأقبلوا على كتابة هذا اللون من الأدب، وحسنوا في أساليبه، ورفعوا من مواضيعه، واعلوا من شأنه ، لأنهم بدأوا يشعرون بتطور الذوق الأدبي العام ، وبخاصة فيما يتعلق بالقصص، ولذا زاد عدد الكتاب وعدد القراء" [1] .

---

1) راجع محمد يوسف نجم ، القصة في الأدب العربي الحديث ، مرجع سابق ص ٧٩ .

٣- والتر سكوت "التعويذة"

الكاتب البريطاني الشهير سير والتر سكوت من أهم الكُتّاب البريطانيين في كل العصور، وهو من أبرز كتاب رواية الفروسية ،والنبل ، وقد عاش في الفترة بين عامي ١٧٧١، ١٨٣٢، هو صاحب العديد من المؤلفات منها "إيفا نهو" و"سيده البحيرة" و"القزم الأسود" وغيرها من الروايات .

ورواية الطلسم التي كتبها سكوت عام ١٨٢٥،هي الرواية الوحيدة التي كتبها المؤلف حول الحروب الصليبية، ولأن الكاتب اعتاد يكون أبطاله دائمًا من النبلاء المتخاصمين فيما بينهم، مثلما حدث بالنسبة لفرسان المائدة المستديرة،فإنه حول الحرب بين الصليبيين والمسلمين إلى مواجهة بين نبلاء ، خاصة الملك ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبي؛ حيث فقد كل من الاثنين الشعور بالعداء الذي يود فيه كل منهما تدمير الآخر ولكنه يسعى للانتصار على منافسه ، خاصة صلاح الدين الذي تسلل ليلا وسط الجيوش الصليبية،وهو يحمل معه الدواء اللازم لعلاج خصمه.

ويقول النقاد إن والترسكوت هو أحد أدباء الغرب الـذين نظروا إلى صلاح الدين كبطل عربـي مـسلم يتـسم بالنبـل والشجاعة. يعيش في بلاد قامت بتـصدير الحكمـة والقـوة ، والرخاء والشجاعة إلى العالم.

لم يتكلم المؤلف عن الحرب الـدائرة بـين الـصليبيين والمسلمين، ولكن الصراع الذي تحول إلى صداقة بين قائـدين متحاربين .

فبينما الجيوش رابضة تنتظر المواجهة الحاسـمة،بعد أن انتصر صلاح الدين على الصليبيين في حطـين، فـإذا بالقائـد العربي يسمع بمرض عضال أصاب القائد الإنجليزي، ويرسـل إلى الخليفة العباسي يخبره بالأمر،ويـستأذنه فـي أن يـذهب لمعالجة القائد الخصم.

ويرى سكوت أن النبل لم يكن سمة صلاح الدين وحده،بل إن الخليفة الإسلامي ينظر إلى الـصليبيين كـضيوف سـوف يرحلون عن الوطن في أقرب وقت ممكن، لذا فإنه يوافق علـى أن يذهب صـلاح الدين رغم المخاطر التي يمكن أن يتعـرض لها .

وبالفعل ، بينما السيوف تشحذ،ووسط جيش منهزم، يتسلل صلاح الدين مع واحد من أشياعه داخل الصفوف التي أصيب قائدها بالمرض ، ويقود الاثنين واحد من رجال ريتشارد، ويدخل الخيمة التي بها قلب الأسد، لقد نظر إليه كمريض،وليس كقائد مهزوم وهنا يتحول صلاح الدين من قائد منتصر إلى حكيم يعرف كيف يشخص الداء ويعطى له الدواء.

ويرى سكوت أن صلاح الدين فاق بهذا السلوك أعظم الفرسان الإنجليز شهامةً ونبلاً، ونكرانًا للذات، فقد كان من الممكن أن يتعرض لأذى جماعي من الجنود الصليبيين لو تم اكتشاف أمره وهو يخترق الجيش، ذهابًا وإيابًا.

وقبل أن يغادر صلاح الدين معسكر الصليبيين يقدم إلى الفارس الاسكتلندي الشهير سير كينيث التعويذة أو الطلسم الشافي الذي يمكن أن يبرئ المريض لو عاوده المرض ،ومن هنا جاء اسم الرواية التعويذة(١).

---

١) ا"التعويذة" أو "الطلسم" : هو حجر صغير مثلث الشكل أحمر اللون : وهناك أكثر من إشارة أنه مازال في أسكتلندا حتى اليوم.

٣ - يعقوب صروف "قلب الأسد"

جاء في كتاب "الإعلام" لخير الـــدين الزركلـــي تعريـــف بالدكتور يعقوب صروف كما يلي : يعقوب بن نقولا صـــروف (١٨٥٢-١٩٢٧)عالم بالفلسفة والرياضيات والفلك ، من أئمـــة المترجمين عن الإنجليزية . ولد فـــي قريـــة "الحـــدث" بقـــرب بيروت، وتعلم ببيروت في الجامعة الأمريكية، وامتاز بالرياضة والفلسفة،واشتغل بالأدب، وأصدر مع فـــارس نمـــر وشـــاهين مكاريوس، مجلة "المقتطف"سنه ١٨٧٦، وانتقلوا بها إلى مصر سنة ١٨٨٥ وكانت من أرقى المجلات العلمية العربيـــة،أخرج منها الدكتور صروف واحدًا وسبعين مجلـــدًا ، وشـــارك فـــى إصدار جريدة "المقطم" سنة ١٨٨٩، وصنف وترجم عدة كتـــب منها "سر النجاح" و"بسائط علـــم الفلـــك" و"الحـــرب المقدســـة" و"الحكمة الإلهية" و"سير الأبطال والعظمـــاء" و(شـــاركه فـــي ترجمته عن الإنجليزية فارس نمـــر) و"فـــصول فـــى التـــاريخ الطبيعي" وله نحو عشرين قصة منها " فتاة الفيـــوم" و "أميـــر لبنان" و" فتاة مصر".

عندما بدأنا نترجم الروايـــة عــن الإنجليزيـــة أي فـــي ١٨٨٦، وهى السنة التي عرب فيها يعقوب صــــروف روايـــة الطلسم لوالتر سكوت كان قد مــضى علـــى ظهــور الروايـــة الإنجليزية (Novel) فترة من الزمن تقترب من قرن ونصف قطعت فيها شوطًا كبيرًا في مضمار التطور مرت خلاله بمراحل مختلفة [1].

تنتمي رواية قلب الأسد إلي ما أطلق عليه الحكاية الشرقية وقد بدأت لوناً من ألوان الرواية في إنجلترا في أوائـــل القـــرن الثامن عشر، وكانت ألف ليلة وليلة قد ترجمت إلي الانجليزيـــة في الفترة ما بين ١٧٠٤ و ١٧١٢ ولاقت نجاحًا كبيرًا ، وتركت أثرًا عظيمًا في العقلية الإنجليزية [2]، وعمل الكتاب الإنجليز علـــى تقليدها في عدد كبير من الروايات التي تتخذ الشرق مسرحاً لها.

---

١) يعتبر المؤرخون سنة ١٧٤٠ تاريخًا لبدء ظهور الرواية الإنجليزية وهـــي السنة التي اصدر فيها صموئيل ريتشارسون (١٦٨٩-١٧٦١) روايتـــه الأولـــي بميلا Pamela راجع : لطيفة الزيات حركة الترجمة الادبيه رســالة دكتـــوراه مخطوطة جامعه القاهرة ص٧٦ وما بعدها

٢) راجع المصدر السابق ص ٨١

كان " يعقوب صروف" قد غير عنوان الرواية ، من الطلسم أو التعويذة إلى قلب الأسد، ولم يتقيد بالأصل الذى ترجمه إلا من حيث روحه العامة ، أو فكرته الرئيسية. أما بعد ذلك فقد أباح لنفسه التصرف فيه ، ويشير صراحة إلى ذلك في خاتمة الرواية، يقول: قد لخصنا هذه الرواية من رواية إنكليزية شهيرة اسمها "الطلسم" للكاتب البليغ السير ولتر اسكوت وتصرفنا فيها بزيادة وإسقاط وتغيير وإبدال لتوافق ذوق القراء في هذه البلاد . وهي تطابق الحقائق التاريخية في أكثر وقائعها (....) ومن جملة فوائد هذه الرواية الجليلة تفصيل عوائد الناس في تلك الأيام وتمثيل أحوالهم أحسن تمثيل فعسي أن تقع عند القراء الكرام موقع القبول والاستحسان[١] .

تبدو إشارة " يعقوب صروف" السابقة ذات أهمية خاصة؛ فقد كشفت لنا الطريقة التي تمت بها عملية التصرف بالنصوص الروائية الأجنبية من تغيير وإبدال وزيادة لتوافق ذوق القراء من ناحية والمرويات السردية الشعبية من ناحية أخرى.

---

١) الرواية ص ٢٠٧

يكشف لنا التشكيل السردي في هذه الرواية بما انطــوى عليه من وحدات وتقنيات سردية عن الامتثال للأسلوب التقليدي الكلاسيكي والشعبي في الكتابة، فتبدأ الرواية بالسرد التقليدي؛ إذ تسرد الوقائع بشكل رصد عام قد صيغ بنفس الأسلوب التراثي حتى كاد أن يكون نقلاً عن المراجع القديمة أو المصادر التراثية التاريخية، ويمكننا أن نلاحظ أن يعقوب صروف كان يتوقــف أحياناً في سرده ليعود للحديث عن إحدى الشخصيات أو يتابع ما انقطع حول بعض الحوادث ، فكثيرًا ما تطالعنا عبـــارات مـــن قبيل :

" لنرجع إلي ...

" فلندع الآن ...

" قلنا آنفاً ...

" هلم بنا أيها القارئ اللبيب ...

" ولا يخفي على القارئ أن ...

"ولنرجع بالقارئ إلى ... ".

وواضح أن الكاتب يستشعر أنه بعد عن السير الطبيعـــي للأحداث الرئيسية، وانشغل بأحداث فرعية ، فيذكره بما مـــضي من الأحداث بواســطة تلــك العبارات (فلنتــرك ، فلنــدع ، فلنرجع ،....) .

ويبدو سيطرة الراوى العليم في السرد ، بالإضافة إلى أنه يخاطب القارئ ، وكأنه جزء من البنية السردية ، وهنا التـــأثر واضح بما كان يحدث في المرويات السردية العربية القديمـــة ، ويبدو تأثر يعقوب صروف بنمط التشكيل الـــسردي المـــوروث واضحا في تعليقه علي الأحداث بحكمة أو مثـــل ، أو بالـــشعر الذي يعلق به المؤلف عن الأحداث أو الذي يديره على ألـــسنة الشخصيات، ويمكن أن نجد توظيف الشعر ، داخل الرواية فـــي مواضع كثيرة في الرواية [1] .

يقول :

إذا اعتاد الفتى خوض المنايا فأهون ما يمر به الوحول

بل نراه أيضًا في عناوين بعض فصول الروايـــة؛ فعلـــي سبيل المثال يبدأ الفصل السادس بهذا البيت الشعري

دع ذكر سلمي وبانات بذي سلم واقصص علينا حديث السيف والقلم

وجدير بالذكر أن تضمين الشعر داخل السرد على هـــذا النحو شكل ظاهرة في أغلب الكتابات الروائية في تلك المرحلة سواء المؤلفة او المعربة ، قلما نجد رواية لا توظف الشعر فيها داخل السرد الروائي، ويبدو التأثر هنا في تضمين الشعر بتقاليد كتاب السيرة النبوية ، والسير الشعبية.

---

١) ص٢٨

وجدير بالذكر أن أسلوب يعقـوب صـروف قـد تميـز بالسهولة والوضوح ليس فيه إغراب ولا اهتمـام بالمحـسنات البديعية؛ فقد كان أسلوبه فى الكتابة "حسب محمد يوسف نجـم" أسلوب العالم ، فكان يكره التزويق والأسجاع والبهارج اللفظية، ويقنع بالقليل من الألفاظ للمعنى المقصود (١) .

ويقول إلا أن الصفات الظاهرة لأسلوبه في قصصه، هي القصد في الدلالة والتزام السهولة والوضوح والدقة فى التعبير، ولذا لم يأبه إلى تحبير النثر وتوشيته.

وقد خالف فى ذلك سنة الكتاب فى مطلع هذا القرن؛ فقـد كانوا يقدمون للموضوع بمقدمات طويلة فضفاضة، فى حين أنه كان يهجم على موضوعه مباشـرة دون لـف أو دوران ، ولا يتركه إلا بعد أن يستوفيه؛ وهذه صفه العلماء ، وقد أثرت عليه في كتابة القصة، فكان يـستوفى بعـض الأخبـار والحـوادث والمعلومات،ويدقق فيما يورده.

على هذا النحو عرب لنـا "يعقـوب صـروف" روايـة "والترسكوت" (الطلسم) لتكون أول رواية معربة عن الإنجليزية فى القرن التاسع عشر.

---

١) محمد يوسف نجم ،القصة في الأدب العربي الحديث، مرجع سـابق ، ص ١٤٨ .

رواية

قلب الأَسد

ملخَّصة من الانكليزيَّة

بقلم

منشئ المقتطف

رواية

قلب الاسد

الفصل الاوَّل

زحف الافرنج منذ سبع مئة سنة زحفة ثالثة على بلاد الشام لاستخلاصها من قبضة المسلمين . وحدث ان فارساً من فرسانهم ذهب الى غور الاردن لمهمةٍ لهم فلما دنا من البحر الميت خطر لهُ ما فعل الله بسدوم وعمورة والمدن المجاورة لها حين عصتهُ قديماً فامطر عليها ناراً وكبريتاً من السماء وشقَّ الارض ودحرها فيها ثم اجرى على آثارها مياه البحر الميت فلم يزل آيةً من آيات الله في مرارة مياههِ وخلوّها من الاحياء . ولمَّا تذكَّر ذلك كلهُ اقشعرَّ بدنهُ وارتعدت فرائصهُ * وكانت الشمس قد تكبَّدت السماء او كادت وارسلت اشعتها كالسهام المحرقة

يومٍ من الشِعْرى يذوبُ لعابهُ   افاعيهِ في رمضائهِ تتململُ

فخيِّل لهُ ان الجحيم فتح فاهُ فاستعرت الارض بلظاهُ . ولولا

رداءٌ رثٌّ كان ملتحفًا بهِ فوق اسلحتهِ لاعياهُ حرُّ الهواءِ واضناهُ وهج الصحراء . وكان على الرداء صورة نمر رابض وهي شعار عائلتهِ وكانت مرسومة ايضًا على ترسهِ واسلحتهِ ولكنَّها تثلَّمت من ضرب السيوف ووقع السهام . وكأنَّ الطبيعة التي افرغت اعضاء هذا الفارس في قالب القوَّة والبأْس منحتهُ بنيةً لا يضنيها التعب ولا يتغلَّب عليها تقلُّب الاقاليم . وكانت اخلاقهُ نظير بنيتهِ فجعل الحزم لهُ شأْنًا والثبات ديدنًا وهذا الذي ميَّز اهل الشمال على غيرهم من الشعوب وبوَّأَهم ارائك الملك في اوربا كلّها

ولم يأْتِ هذا الفارس من بلادهِ بمال كثير ولذلك نفد مالهُ سريعًا ولم تسمح لهُ نفسهُ الابيَّة ان يغتصب اموال السكَّان ولا ان يفدي اسراهُ الذين كان يأْسرهم بالمال كما فعل غيرهُ من الفرسان ولذلك هجرهُ رفاقهُ ولم يبقَ معهُ الَّا رجل واحد وهو الذي كان يحمل لهُ سلاحهُ وكان مريضًا في ذلك الوقت فاضطرَّ الفارس ان يسير وحدهُ في تلك القفار ولسان حالهِ يقول

اذا اعتاد الفتى خوضَ المنايا فاهونُ ما يمرُّ بهِ الوحولُ

وكان يعلم أن في طريقهِ نبع ماء وبجانبهِ اشجارًا من النخيل فلمَّا

صار بمرأًى منها حيَّاها تحيةَ العطاش للماء الزلال منتظرًا دنو وقت الراحة . وكأَنَّ جوادهُ علم ذلك فصرَّ اذنيهِ وحمحم واسرع في عدوهِ . ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن لان هذا الفارس لم يلبث ان رأَى النخلات حتى رأَى بجانبها شبحًا يتحرَّك ثم راهُ يقترب نحوهُ ولم يكن الَّا هنيهة من الزمان حتى انجلى عن امير من امراء المسلمين راكب فرسًا عربيًّا يسابق الرياح وبيدهِ رمح قد سدده نحو الفارس يريد ان يختطف بهِ روحهُ . فتربَّص في مكانهِ لان التجارب علَّمتهُ ان مطاردة الخيول العربيَّة ضربٌ من الحماقة وكأَنَّ الامير لحظ ذلك ورأَى خصمهُ راغبًا عن الكرّ والفرّ فدنا منهُ حتى صار على قيد رمحَين ثم دار حولهُ دورتَين لكي يجد منهُ مقتلاً غير حريز فيطعنهُ فيهِ فكان الفارس يدور معهُ كيفما دار حتى اعيت الاميرَ الحِيَل فابعد عنهُ رمية سهمٍ ثم انقضَّ عليهِ كالعقاب فراهُ مستعدًّا لهُ متأهبًا لملاقاتهِ . فاوسع في عرض البيداء ثم انقضَّ عليهِ ثالثةً كصاعقةٍ منقضَّةٍ من السماء فابتدرهُ الفارس برمح قناتهُ كالسارية رشقهُ بهِ رشقًا قاصدًا رأْسهُ فاستلقى الاميرُ الرمحَ بترس لهُ من جلد الكركدن فرجع الرمح عنهُ

خائبًا ولكنهُ لم يستطع الثبات على ظهر جوادهِ من عنف
الضربة وثقل الرمح فوقع على الارض ولم يصل اليها حتى
وثب الى ظهر جوادهِ وابعد عن خصمهِ متعوّذًا من شرّهِ . ثم
اوتر قوسهُ وجعل يرميهِ بالنبال حتى رماهُ بستّ اصابتهُ كلُّها
ولكنَّها لم تأتهِ بمكروهٍ لانهُ كان غائصًا هو وجوادهُ في الحديد
والزرد النضيد . ثم رماهُ بسهمٍ سابع اصاب منهُ مكانًا غير
حريز فسقط على الارض مجندلاً . فاسرع الامير وترجّل ليرى
ما حلَّ بخصمهِ فلم يشعر الاَّ وهو قابض على نجاد سيفهِ وسير
جعبتهِ يحاول ان يصرعهُ بقوّة ذراعهِ فقطع الامير بنود السيف
وسير الجعبة وتملَّص منهُ واستوى على ظهر جوادهِ والتفت
اليهِ قائلاً "نحن واياكم في هدنةٍ وقد خَبَرْتَ قوّتي وخَبَرْتُ
قوّتك فهلمَّ نتصالح ونتصافَ" . فقال الفارس لا اكرهُ الصلحَ
اذا كان لي منكَ ما آمنُ بهِ غدرَكَ . فقال الامير ليس
الغدر من شيمنا لان الشجاعة والغدر لا يجتمعان في انسان .
فندم الفارس على ما فرط منهُ وقال لهُ حَسْبِي واقسم انهُ
لا يغدر بهِ ما دام في رفقتهِ فاقسم الامير لهُ كذلك . ثم جريا
معًا نحو الينبوع ليبرّدا غليلهما ويستظلاَّ من حرّ الظهيرة

الفصل الثاني

لم تخل اوقات الحرب والعدوان من أُوَيقاتٍ يتسلّط فيها الأمن وينشر السلمُ لواءهُ حتى في العصور التي كان لسان الحال يقول فيها

المجدُ في يصهواتِ الخيلِ مطلبهُ والعزُّ في ظُبَةِ الصمصامةِ الخذِمِ

ولهذا كان عرب الجاهليّة ينزعون اسنّة رماحهم في الشهر الحرام وينقطعون عن الحرب والصدام . وكانوا هم وغيرهم من الامم يتهادنون اذا ملُّوا من ضوضاء الحروب ليتبصَّروا في اطفاء نارها . وكان الخصوم يلتقون اليوم في ميدان الوغى ثم يتهادنون في الغد ويتصافون ويقيمون على ولاء وتصافٍ الى أن تنقضي أيام الهدنة فيعودون الى المبارزة والمناجزة

وكانت اخلاق العرب والافرنج في العصر الذي حدثت فيهِ الحوادث التالية قد تدمَّثت باختلاطهم بعضهم ببعض في الشام والاندلس وانتشر بينهم حفظ الذمام ورعاية العهود فاذا تهادنوا ابعدوا الغدر عن خيامهم واعتصموا بالمروءة والشهامة الى ان تنقضي ايام الهدنة . وعلى ذلك سار الامير

والفارس نحو الينبوع وكلٌّ منهما آمن غدر رفيقهِ . وكان فرساهما متعبين من المجاولة واشدُّهما تعبًا فرس الفارس الافرنجي لانهُ لم يكن معتادًا على الحرّ ولا على المشي في الرمال فترجّل عنهُ وقادهُ بلجامهِ . فالتفت اليهِ الامير وقال لهُ نعمَ ما تفعل لان جوادك كريم لا يحسن التفريط فيهِ ولكن ما هذا الجواد لمثل هذه الرمال ألا تراهُ يغوص الى الوصيف في كل خطوةٍ يخطوها . فاغتاظ الفارس من كلامهِ وطعنهِ على جوادهِ وقال لهُ ان هذا الجواد قد سار بي فوق بحار اوسع من هذا البحر ولم تبتلّ شعرة من قوائمهِ . فرمقهُ الامير بعين المرتاب وقال لهُ صدق المثل القائل اصغِ الى الافرنج تسمع الغرائب . فحملق الفارس فيهِ وقال أترتاب في قول فارس مجرَّب ولكن لا عتب عليك فانك تجهل حقيقة قولي ولولا ذلك لانقضت مدَّة المهادنة بيننا . فاعلم انني انا وخمس مئة فارس سرنا على الماء بخيولنا اميالاً عديدة وكان الماء جامدًا كالبلور . لانهُ كما ان الحرّ يلطّف التراب في هذه البلاد حتى يصير سهل الانهيار كالماء فالبرد يجمّد الماء في بلادنا حتى يصير صلبًا كالصخر . ولكن دعنا من هذا الحديث لان ذكر

بحبوحة بلادي يهيج اشجاني ويشدّد عليَّ وطأة الحرّ في هذه القفار . ثم وصلا الى الينبوع فاشغلهما طلب الراحة عن استطراد الكلام

من غرائب الله في خلقهِ ان ترى رجلاً صالحًا بين قوم أثمة كما كان صالح في ثمود . ولكن ما ذلك باغرب من وجود هذا الينبوع في تلك القفار . والظاهر ان عين البشر اكتشفتهُ لما كانت البلاد في بسطة من العيش فبنوا عليهِ قبةً لكي لا يجفّ بحرّ الشمس ولا تسفي الرياحُ الرمالَ عليهِ . وقد تشعثت هذه القبة وتهدّم بعضها ولكن بقي منها ما يقيهِ من اشعة الشمس وثوران الرمال . والماء يصبُّ من الينبوع في جرن من المرمر خدشتهُ مخالب الدهر ولكنهُ لم يزل شاهدًا على ان كثيرين من ابناء السبيل قد ارتشفوا من مائهِ . ثم يجري من الجرن فيسقي ما حولهُ من النخل والنبات فيجعل تلك البقعة جنةً في جهنم الصحراء

ولما بلغ الفارسان الينبوع نزع كلٌّ منهما لجام فرسهِ وسرجهُ وسقاهُ وتركهُ يرعى في ذلك المرج ثم شربا وجلسا على بساطٍ من العشب واخرج كلٌّ منهما مزودهُ وجعل يأكل

وينظر الى رفيقهِ ويتأمّل في بنيتهِ ليعلم مقدار قوّتهِ

وكان الفارس الافرنجي طويل القامة ضخم الاعضاء اشقر الشعر اجعدهُ ابيض الوجه احمرهُ ازرق العينين واسعهما كبير الشاربين محلوق اللحية دقيق الانف صغير الرأس تلوح على وجههِ امارات الشهامة والانفة وعزّة النفس وكان الامير العربي فوق الربعة في القامة صغير العضل مجدولهُ خال من آثار الترهُّل كانهُ عظم وعصب اسود الشعر اجعدهُ مشحوذ اللحية دقيق الانف اسمر اللون اسود العينين برّاقهما على وجههِ امارات المهابة وعلو الشأن

وكان طعام الفارس من لحم الخنزير المقدَّد وشرابهُ من النبيذ المعتّق وطعام الامير من الخبز والتمر وشرابهُ من الماء القراح . فالتفت الى الفارس وقال لهُ لا يحسُن بمن يحارب حرب الابطال ان ياكل طعام الوحوش فلو وقف بك يهوديٌّ لاشمأزّت نفسهُ من رؤية هذا الطعام الذي تلتهمهُ كانهُ من سدرة المنتهى (١)

فعجب الفارس من هذا الكلام وقال لهُ اننا نحن معاشر

---

(١) اسم شجرة في السماء السابعة

النصارى لنا من الحرّيّة ما ليس لليهود قال ذلك وكرع كرعة من الخمر . فقال الامير أتاكل كالوحوش وتشرب ما تعاف الوحوش شربهُ وتدعو ذلك حرّيّةً . فقال الفارس وقد قدحت عيناهُ الشرر اعلم ايها الغبي ان عصير الكرمة يفرّح قلب الانسان وينفي عنهُ الهموم والاحزان فمن استعملهُ بالاعتدال يشكر الله عليهِ كما يشكرهُ على الخبز الذي لا غنًى عنهُ

فوضع الامير يدهُ على قبضة حسامهِ وهمّ باستلالهِ ولكنهُ عاد فذكر قسمهُ وقوّة خصمهِ فترك الحسام وعاد الى الكلام فقال : اعلم يا هذا ان الشريعة التي تفتخر انت بانها عتقتك من نير الناموس قد قيّدتك بقيود لا يتقيّد بها العبد الذليل واي قيد اشدّ من ان يرتبط الرجل بامرأة واحدة مهما كانت اطوارها ويضطرّ ان يساكنها مدى الحياة . امّا نحن معاشر المؤمنين فقد حرّرنا نبيّنا بحرّية ابرهيم ابينا واباح لنا التمتّع بما ملكت ايماننا

فقال الفارس وحق مالكة فؤادي انك في ضلال مبين . ألا تباهي بهذه الجوهرة التي في خاتمك . فقال الامير كيف لا اباهي بها وهي يتيمة بغداد والبصرة . فقال الفارس

أحسنتَ ولكن لو ضربتها بمطرقة حتى تكسّرت كسرًا صغيرة ما كان لكلّ قطعةٍ منها قيمة كما لها ونحن يقف الواحد منّا محبّتهُ على امرأةٍ واحدة فتبقى المحبّة سليمة كالجوهرة وامّا انتم فتنقسم محبّتكم بين نسائكم

فقال الامير لقد أسأتَ التشبيه فان هذه الجوهرة محاطة بجواهر أُخرى اصغر منها كما ترى فهي بمثابة الرجل والجواهر الصغيرة التي حولها بمثابة نسائهِ فهو رأسهنّ وهنّ تزداد قيمتهنّ بانضمامهنّ اليهِ . فقال الفارس لو رأيتَ نساءَنا ما نطقتَ بمثل هذا الكلام فانّ جمالهنّ يثقّفُ رماحنا ويجدّدُ سيوفنا فباسمهنّ نحارب ومن اجلهنّ نتجرّع كأسَ الحمام كأنها كأس الحياة وما من فارسٍ من فرساننا اشتهرَ بين اقرانهِ الاَّ ولهُ حبيبةٌ يحاربُ من اجلها

فقال الامير قد سمعتُ كثيرًا عن هذا الجنون الشائع بين فرسانكم وما هو الاَّ من نوع الجنون الذي جاء بكم الى هذه البلاد . وكنتُ اودُّ ان أرى هؤلاء الجميلات اللواتي يختلبنَ قلوب الرجال ويصيرنهم ابطالاً في مواقف القتال

فقال الفارس لو لم اكن ذاهبًا في هذا الطريق لأَخذتكَ

الى ريكارد ملك الانكليز الذي يُكرِمُ كل شجاع ولو كان من ألدِّ اعدائهِ وأريتكَ هنالك جمال نساء فرنسا وبريطانيا الذي يفوقُ بهاؤهُ بهاء هذه الجوهرة كما يفوقُ نورُ الشمسِ نورَ الحباحب.

فقال الامير هلمَّ معي الى ملك الانكليز ولا تلقِ بنفسكَ في التهلكةِ لان الطريق الذي انت فيهِ كثير المخاطر ولا سيما اذا لم يكن معكَ اجازة من السلطان

فقال الفارس وما ادراكَ ان ليس معي اجازة . ثم أخرج رقعة من جيبهِ عليها ختم صلاح الدين سلطان مصر والشام . فتناولها الامير من يدهِ وقبلها ووضعها على رأسهِ ثم ردَّها اليهِ وقال لقد أخطأتَ اذ لم تُرِني هذه الاجازة حالما التقيتُ بكَ

فقال الفارس انك قابلتني مشرعًا رمحك وانا لو هجمتْ عليَّ كتيبةٌ من كتائبكم كما هجمتَ انتَ ما لاقَ بي ان التقيها بغير الحسامِ والقنا

فقال الامير مهلًا يا صاح فان واحدًا من الكتيبة قد صدَّك عن مسيرك . فاجابهُ الفارس نعم ولكنَّ هذا الواحد نادر المثال

فانشرح صدر الامير وقال . لقد انصفتنا فالحمد لله اننا لم نتمكَّن من اراقة دمك وانت حامل امر ملك الملوك بيدك والَّا لكانَ القتل جزاءنا لا محالة

فقال الفارس يسرُّني ان اراكم تحترمون امر السلطان هذا الاحترام فقد بلغني ان في الطريق قبائل كثيرة شأنها القتل والنهب . فقال الامير اذا نابك مكروهٌ من هؤلاء القبائل زحفتُ عليهم بخمسة آلاف فارس وقطعتُ دابرهم . فشكرهُ الفارس وطلب اليهِ ان يهديهُ الى مكان كان يريد المبيت فيهِ . فقال الامير انت ضيف عليَّ ولا بدَّ من نزولك في خيمة ابي . فاجابهُ الفارس كلَّا فاني عازم ان ابيت عند رجل ناسك في مكان يقال لهُ عين جدي . فقال الامير انا امضي معك الى هذا الناسك . فقال الفارس اخاف ان تعلم بمقرهِ فلا يسلم من شرّكم . فاجابهُ الامير اعلم يا هذا ان كل مَنْ رعى ذمامنا من اهل ذمَّتنا رعينا ذمامهُ طبقًا لسنَّتنا ولكن مَن حمل الناس على حربنا حملنا عليهِ بخيلنا ورجلنا وحكَّمنا فيهِ سيوفنا

الفصل الثالث

لما ارتاح الفارسان من مشقَّة الطريق وفرغا من الطعام أَلبسا فرسَيهما عدَّتيهما وتعاونا على لبس سلاحهما ثم شرب الفارس وقال حبَّذا لو علمتُ اسم هذا الينبوع لانني لم أَرَ مثل مائهِ لتبريد ظماء العطاش . فقال الامير اسمهُ عندنا درَّة القفر . فقال الفارس نعمًّا فقد وافق الاسمُ المسمَّى . ثم ركبا فرسَيهما وانسابا في تلك الفيافي وكانت الشمس قد مالت عن الزوال وخفَّت وطأَة الحرّ . فالتفت الامير الى رفيقهِ وقال لهُ سأَلتني عن اسم الينبوع أَفلا يليق بي ان أَسأَل عن اسم من شاركني اليوم في السرَّاء والضرَّاء . فقال الفارس ان اسمي لا يستحق ان يُشهَر الآن ولكن اذا كان لابدَّ لك من معرفتهِ فهو وليم صاحب النمر الرابض هذا هو الاسم الذي أُدعى بهِ بين الجنود . واما في بلادي وبين قومي فلي اسم آخر والقاب أُخرى . وانتَ من اي قبائل العرب تكون وما هو اسمك بين قومك . فأَجاب الامير انا لستُ من العرب بل من الاكراد واسمي شيركوه (اي اسد الجبل)

فتأمّلهُ الفارس ثم قال لهُ بلغني ان سلطانكم صلاح الدين كردي الاصل ايضًا فهل ذلك صحيح . فأجاب الامير نعم وذلك فضلٌ من الله علينا فقد شرَّف جبالنا حتى أخرج منها مَنْ عقَدَ النصرَ باسمهِ . وانتَ بكم من الرجالِ خرجتَ من بلادك . فقال الفارس بعشرة فرسان وخمسين راميًا وهذا كل ما بلَغَتْ اليهِ مقدرتي ومعونة أصدقائي . ولكن لم يبقَ معي الّا رجل واحد والبقيَّة فارقوني قتلاً وموتًا وهجرًا

فنظر اليهِ الامير متعجبًا وقال هوذا خمسة سهام في جعبتي فاذا ارسلتُ سهمًا منها الى خيامي خَرَجَ اليَّ الف فارس واذا ارسلتُ سهمًا آخر خرج اليَّ الفٌ آخر وهكذا الى السهام الخمسة واذا ارسلتُ قوسي خرج اليَّ عشرة آلاف فارس . فكيف اتيتَ بخمسين رجلاً لتتغلَّب على بلاد انا من اقل حماتها بل كيف تأمن لي دمي في معسكر قومك وانت لا مال معك ولا رجال

قال الفارس اذا نال الواحد منّا رتبة فارس او كان من الاشراف ساوى الملِك مرتبةً في كل شيء الّا المُلك. فلو ان ريكارد ملك الانكليز نفسهُ اهان فارسًا منّا ودعاهُ ذلك

الفارس الى المبارزة لاضطرَّ ان يبارزهُ

فقال الامير اودُّ ان ارى كيف تعطون الواحد منطقة من جلد ومخاسين فيتساوى مع ملوك الارض. (اشار بذلك الى الوسم بسمة الفرسان الذي كان يوسم بهِ أبطال الافرنج)

وقال الفارس اعلم انهُ لا ينال هذه الرتبة الَّا من كان حرًّا باسلًا. فقال الامير أيستطيع بهذه الرتبة ان يرى نساء اسيادهِ وبناتهم. اجاب الفارس نعم ويحقُّ لكلّ فارسٍ ان يهوى أيَّة اميرة كانت ولو من بنات الملوك ويقف لها سيفهُ وشهرتهُ وعواطف قلبهِ. فقال الامير يظهر لي انك عليُّ الهيام فهل لك ان تبوح لي باسم التي انت هائمٌ بها

فاحمرَّ الفارس خجلًا وقال ما الاباحة من مذهبي وحسبُكَ ان تعلم اني عليُّ الهيام كما قلتَ. فاذا اردتَ ان تزيد علمًا عن الحبّ والهيام فادخل مخيَّم الصليبيين تسمع ما يلذُّ بهِ مسمعك وترَ ما يقرُّ بهِ ناظرك

ترَ الظبي خاطراتٍ في معالمنا والأُسْد تحمي الحمى بالبيضِ والسُّمرِ

فلمَّا سمع الامير هذا الكلام قال حبَّذا الأُسْد وحبَّذا البيض والسمر ثم ترنَّح طربًا وانشد قول عنترة العبسي

احنُّ الى ضربِ السيوفِ القواضبِ ... واصبو الى طعنِ الرماحِ اللواعبِ
ويطربني والخيلُ تعثرُ بالقنا ... حداةُ المنايا وارتهاجُ المواكبِ
وضربٌ وطعنٌ تحتَ ظلِّ عجاجةٍ ... كجنحِ الدُّجى من وقعِ ايدي السلاهبِ
لعمركَ انَّ المجدَ والفخرَ والعلى ... ونيلَ الاماني وارتفاعَ المراتبِ
لمن يلتقي أبطالها وسراتها ... بقلبٍ جسورٍ عندَ وقعِ المضاربِ
ويبني بحدِّ السيفِ مجدًا مشيَّدًا ... على فلكِ العلياءِ فوقَ الكواكبِ

وكان للفارس سنتان في بلاد الشام فكان يفهم كلام العرب واشعارهم فقال للامير على سبيل المزاح ذكرتَ السيف والرمح ولم تذكر فأس الحرب فلو رأيت فأس الملك ريكارد ما ذكرت غيرها من ادوات الحرب والجلاد

فقال الامير طالما سمعت عن هذا الملك فهل انت من رعيتهِ

فاجاب الفارس انا من رفاقهِ في هذه الحملة ومن خدمهِ ايضًا ولكني لستُ من رعيتهِ مع اني مولودٌ في جزيرتهِ بل انا من الشعب الاسكتسي . فسألهُ الامير أيملك عليكم ملكان في جزيرة واحدة . فقال نعم والحرب بين هذين الملكين لا ينطفئ سعيرها ولكنهما يدٌ واحدةٌ على العدو ولذلك خرجنا معًا لنخلّص هذه البلاد من ايديكم

فقال الامير يمين الله انكم لفي ضلالٍ مبين واني لاعجب

من هذا الملك كيف انهُ يجرّد جنودهُ لمهاجمة هذه القفار ويترك في بلادهِ ملكاً آخر ينازعهُ الملك فلا بدّ من انكم قد خضعتم لهُ جميعاً قبل مجيئهِ الى هنا

فاعترضهُ الفارس قبل ان يتمّ كلامهُ وقال لهُ لا وحق نور السماء بل لو اراد ريكارد اخضاعنا قبل قيامهِ على الشام لبقيت الشام في حوزتكم ابد الدهر . قال ذلك ثم ندم على ما قال متمثلاً بقول القائل

احبت العدى سمعاً فلا كانت العدى   اذا وجدوا خرقاً ارادوا اتساعهُ

فعلم الامير من هذا الكلام ان ملوك النصارى منقسمون فيما بينهم كملوك المسلمين ولكن أبت شهامتهُ وعزّة نفسهِ ان يتخذ ذلك فرصة لتوسيع الخرق فتغاضى عمّا سمع كانهُ لم يفهم منهُ شيئاً . ثم قطعا الغور ووصلا الى نجدٍ من الارض كثير الآكام والحزون والشواهق والكهوف فاخذ الامير يقصُّ على الفارس نوادر الضواري واللصوص التي تسكن تلك المغاير فلم يحفل الفارس بها كثيراً لانهُ حسب نفسهُ بأمن منها كلها . ثم خطر لهُ انهُ في القفر الذي جرّب فيهِ السيد المسيح اربعين يوماً فافزعتهُ افكارهُ وخيّل لهُ ان الارض مسكونة بالجن والشياطين

فجعل يصلّي ويتعوَّذ بالله

وكان الحرّ قد زال وعاد الهواء الى الاعتدال فطابت نفس الامير وتحركت فيهِ الشجون فجعل ينشد الاشعار الغرامية ويشبب بربات الجمال ومخدرات الحجال. فتعوَّذ الفارس من شرّهِ وقال في بالهِ ما رفيقي الاَّ شيطان مريد قد اقتفى اثري ليحوّل افكاري عن التقوى ويحبّب اليَّ حطام هذه الدنيا فحار في امرهِ ولم يدرِ كيف يتخلَّص منهُ. ولمَّا راهُ يزداد تصبيًا وتشبيبًا قال لهُ ايها الغبيُّ أَمَا علمت ان ابليس اللعين يرصد الناس في هذه الكهوف والمغاير فارعوِ عن غيّكَ ودع ذكر هواك وزهوك. فانكر الامير هذا الخطاب ولكنهُ كظم الغيظ ولطَّف الجواب فقال لهُ اظنكم لا تعلَّمون اللطف والادب في بلادكم فانك التهمت امامي فخذًا من لحم الخنزير وكرعت زقًّا من النبيذ وكلاهما رجس في شريعتنا فلم اردعك عن ذلك ولا شدَّدت عليك النكير وانت يثقل عليك ان اخفّف مشقَّة الطريق بنشيد الاشعار والشعر ريحانة النفوس

فقال الفارس اعلم يا صاح اني لا اذمُّ الشعر ولا الغناء فان لهاتين الصناعتين المقام الارفع عندنا ولكن الصلاة

والتسبيح اجدر بهذا المكان من التصابي والتشبيب لانهُ ملجأ الجن والابالسة

فقال الامير مازحًا أوَتحتقر الجن ونحن من ابنائهم . قال الفارس وكيف ذلك : فجعل الامير يقصُّ عليهِ قصةً ملفَّقة فقال ان ملكًا من ملوك الفرس طغى وتجبَّر واكره رعيَّتهُ ان تضحي لهُ الضحايا من دماء الناس . وكان لاحد الحكماء سبع بنات كانهنَّ الدراري السبع فاصابتهنَّ النوبة وجيء بهنَّ الى هذا الملك فلَّما وقفنَ في الدهليز المؤدّي الى مسكنهِ انشقَّت الارض وخرج منها سبعة رجال من مردة الجان فحملوا البنات واخذوهنَّ الى قصر مسحور في جبال كردستان واولدوهنَّ سبع صبيان فولدوا قبائل الاكراد السبع بين الانس والجن

فلَّما سمع الفارس هذه القصَّة لم يشك في صحَّتها لان الاوهام كانت سائدة على عقول الناس في تلك الايام فقال للامير هذا الذي ظننتهُ من امركم فانكم ابطال اشدَّاء كابيكم ابليس ولكنكم تفسدون في الارض مثلهُ . فضحك الامير من كلامهِ وقال صدقت فان الشريعة المطهَّرة لم تغيّر من طباعنا شيئًا

وعندنا ان الله سبحانهُ سوف يرضى عن الجن والابالسة ويردهم الى المقام الذي سقطوا منهُ . ثم اخذ يترنم بقصيدة من قصائد الفرس القدماء يمدح بها اله الخير واله الشر ومنها قولهُ

اني أُنادي بمدحِ السيدِ العَلَمِ   أُهُوْرَ مَزْدَ لِمَنْ يصغي الى كلمِي
واهرمان اله الشرّ امدحهُ   مخافةَ الشرّ او حفظاً من الالمِ (١)

فقال الفارس ان الامير يتغنَّى بمدح ابليس فاحتار بين ان يتركهُ ويبتعد عنهُ او يدعوهُ الى المبارزة ويغادرهُ طعاماً لوحش الفلا . وبينما هو يَزِن الامرين في بالِهِ اذا شيخ طويل القامة نحيف الجسم مرتدٍ بجلود الحملان يثب من صخر الى صخر كانهُ خيال من الاخيلة او مارد من مَرَدة الجان . فقال ما هذا الَّا ابليس اللعين بعينهِ قد سمع مدح رفيقي لهُ في اشعارهِ فاقبل علينا . فثارت فيهِ الحميَّة الاسكتسيَّة واستلَّ سيفهُ وعزم ان يوقع بالاثنين معاً . وللحال وقف الشيخ امام جواد الامير وقبض على نضوهِ ودفعهُ دفعة تزحزح الجبال فسقط الجواد على الارض ووثب الامير عن ظهرهِ قبل ان سقط فلم ينلهُ

(١) هذه الابيات مترجمة عن الاوستا كتاب الفرس القدماء . انظر المجلد السابع من المقتطف والصفحة ٧٢٤

مكروه. ثم ان الشيخ ترك الجواد وقبض على الامير كانهُ يريد
خنقهُ فناداهُ الامير باسمهِ وقال لهُ تنحَّ ايها المجنون من طريقي
والاَّ قبضتُ روحك بهذا الخنجر. ثم التفت الى الفارس
وقال لهُ هوذا الناسك الذي انت تطلبهُ

فنظر الفارس الى الشيخ ثم قال للامير أما يكفي انك
تثير علينا ابالسة الجحيم حتى تهزأ بي ايضاً. فقال الامير أتشكُّ
في صدق قولي سَلْهُ يخبرك

فقال الشيخ نعم انا الناسك المقيم بعين جدي. انا
نصير الحق وعدو الباطل. انا سيف النقمة على اعداء الله.
قال ذلك واخرج من تحت ثوبهِ نبوتاً كبيراً وجعل يضرب
الصخور بهِ فيفتتها تفتيتاً. فالتفت الامير الى الفارس وقال
لهُ هاك الولي الذي تطلبهُ. فقال الفارس ما هذا الاَّ مجنون.
قال الامير أَوَلا تعلم انهُ اذا اختلَّ عقل الانسان صار من
اولياء الله. وحينئذٍ سمعا الناسك يترنم ويقول

انا الحبيس وعين الجدي لي وطنٌ والليثُ والنمرُ في غاري ميتها
ثم جعل يثب امامها كالظبي. فاحتار الفارس في امرهِ وظن
نفسهُ في ارض مسحورة. فقال لهُ الامير انهُ يدعونا لنبيت عندهُ

فانا الليث لان معنى اسمي ليث الجبل وانت النمر لان النمر شعارك . فتبعاهُ في ذلك الشِّعب وكان قد سبقهما الى غارهِ واضاء لهما مشعلاً ليهتديا بنورهِ اليهِ فبلغا الغار بعد مشقَّة شديدة وربطا فرسيهما عند بابهِ ثم دخلاهُ فوجداهُ غرفتين كبيرتين منحوتتين في الصخر وفيهِ مائدة معدَّة لهما . فترحَّب الناسك بهما وكان قد غيَّر اطوارهُ وثاب الى السكينة والوقار كانهُ ملك من اجلاَّء الملوك منقطع الى الزهد والعبادة . فجلسا حول المائدة واكلا والناسك واقف في خدمتهما لا ينطق بكلمة ولمَّا فرغا من الطعام قدَّم للامير جاماً من الحلوى وللفارس كاساً من الخمر وقال لهما كلا واشربا يا ولديَّ من عطايا الله واشكراهُ في قلبيكما ولما قال ذلك خرج الى الغرفة الخارجيَّة من الغار . فلحظ الفارس ان الامير من معارفهِ فجعل يستخبرهُ عن شأنهِ ولم يكد يصدق ان هذا هو ثيودرك الشهير ناسك عين جدي الذي يكاتب البابوات والمجامع ببلاغة تفوق الوصف وينهض همَّة ملوك اوربا للزحف على الارض المقدسة

وكان الفارس مرسلاً الى هذا الناسك بمهمَّة سياسية

فرأى من اطوارهِ ما جعلهُ يتردَّد عن تبليغهِ الامر الذي جاء لاجلهِ . وجملة ما أَخبرهُ بهِ الامير عنهُ انهُ كان من الابطال العظام الذين جاءوا بيت المقدس للاقامة فيهِ ثم انفرد بنفسهِ الى هذا المكان وعاش عيشة الزهد والتقشُّف وان جميع الاهالي من مسلمين ونصارى يكرمونهُ ويجلُّونهُ وانهُ يظهر تارةً بمظاهر الجنون وطوراً بمظاهر العقل والحكمة فيقصدهُ الامراء والعظماء ليرتشدوا بارشادهِ وان السلطان صلاح الدين أَصدر أمراً يمنع كل الناس عن التعدّي عليهِ . فلم يخجل الامر للفارس وقال في نفسهِ قد يكون جنون هذا الناسك تظاهراً منهُ لكي يقي نفسهُ من العدوان وقد يكون حقيقةً فالاجدر بي ان لا اكاشفهُ بشيء حتى اكون على يقينٍ منهُ . وزاد ارتيابهُ فيهِ انهُ رأى الامير عارفاً من امرهِ اكثر مما اظهر وسمع الناسك يدعوهُ باسم آخر غير الاسم الذي سمَّى نفسهُ بهِ . وفيما هو يتأمَّل في ذلك دخل الناسك وقال سبحانَ مَن جعل لكم الليل لتسكنوا فيهِ فأَجاباهُ سبحانهُ على كل حال . ثم أَشار الى فراشَين بسطهما لهما فخلعا اسلحتهما وصلَّى كلٌّ منهما الى قبلتهِ وانطرح في فراشهِ واخذتهما سنة النوم .

الفصل الرابع

وفيما كان الفارس مستغرقاً في نومهِ شعرَ بثقلٍ على صدرهِ كأنَّ عدوّاً قويّاً يشدُّ خناقهُ ففتحَ عينيهِ فوجد الناسك جالساً امامهُ وقد وضع يدهُ على صدرهِ . فخاطبهُ الناسك باللغة الافرنسيَّة وقال لهُ لي كلام اقولهُ لك ولا اريد ان يسمعهُ صاحبك قمْ والبسْ رداءك واتبعني فقام واخذ سيفهُ فقال لهُ الناسك لا حاجة بنا اليهِ لاننا ماضون الى حيث لا ينفعنا الَّا الاسلحة الروحيَّة . فترك السيف ووضع خنجرهُ في منطقتهِ وسار وراء الناسك وهو يظنُّ انهُ يرى رؤيا حتى بلغا مدخل الغار فقال لهُ الناسك بمَ اتيتني من ملك انكلترا فقال الفارس لم أرهُ لانهُ مريض ولكنَّ مجمع الملوك ارسلني اليك . ففتح الناسك باباً في جدار الكهف وقال أعصبْ عينيَّ بهذا المنديل واتبعني في هذا الطريق . وكان داخل الباب درج منحوتة في الصخر فعصب عينيهِ وتبعهُ فصعدا من درج الى درج الى ان بلغا باباً من الحديد فانفتح لهما واذا داخلهُ كنيسة صغيرة بديعة النقش والاتقان فيها مصابيح من الفضة

يوقد فيها الزيت المطيَّب . فركع الفارس على ركبتيهِ ساجدًا ثم التفت الى الناسك فوجدهُ خارج الباب لا يستطيع الدخول فرجع ليكلمهُ فأغلق الباب في وجههِ ولم يهتدِ اليهِ فأمسى وحدهُ وليس معهُ من السلاح الَّا خنجرهُ . فاحتار في امرهِ وجعل يمشي في الكنيسة ذهابًا وايابًا الى ان قرب الفجر فانفتح باب ودخل منهُ ست راهبات لابسات ثيابًا بيضاء ومبرقعات ببراقع سوداء ووراءهنَّ ست نسوة مبرقعات ببراقع بيضاء وحاملات طاقات من الورد الاحمر والابيض . فطفنَ حول المذبح وهنَّ يرتّلنَ باصوات رخيمة فركع الفارس على الارض وقد ظنهنَّ ملائكة من السماء . ولما طفنَ الطوفة الثانية وهنَّ يمررنَ بجانبهِ وقعت وردة من احداهنَّ بين يديهِ فاجفل منها كأنها صاعقة وقعت عليهِ . ثم عاد الى نفسهِ فقال قد كان ذلك اتفاقًا عن غير قصد . ولكنهُ شعر بجاذب يجذبهُ نحو الفتاة التي وقعت الوردة منها ولم يكن في لباسها ولا في قامتها شيء يميّزها عن رفيقاتها الَّا ان قلبهُ كان دليلهُ عليها فميّزها من بينهنَّ وكان يخفق لرؤيتها حتى كاد يشقُّ صدرهُ ويقع على قدميها كلفًا بها . وكذا تكون مصارع العشّاق .

ثمَّ مرَّت بجانبهِ في الطوفة الثالثة وهو لا يصدّق ما يرى ولما دنَتْ منهُ اخرجت يدها فظهرت من خلال ردائها كالقمر من خلال الغيوم ورَمَتْ لهُ وردةً ثانيةً فخفق فؤادهُ حتى كاد ينصدع وتيقَّن انها رمَتْ الوردة بالقصد لا بالاتفاق ورأَى في يدها خاتمًا من الياقوت ولما وقع نظرهُ عليهِ علم انها هي اليد التي رآها غير مرَّةٍ وقبَّلها ولم تبقَ عندهُ ريبة في انها هي الفتاة التي تعلَّق بهواها ووقف لها نفسهُ ولكنهُ لم يعرف كيف وصلت الى هناك ولا ما هي الغاية التي جاءَت لاجلها الى مكان لا يدخلهُ الَّا الحبساء المتوحّدون فحسب انهُ يرى كل ذلك في حلمٍ

وفيما هو غائص في بحار الافكار انفتح الباب الذي دخلت منهُ العذارى فخرجنَ واحدةً وراء الأخرى وكانت عينهُ لم تزل محدقةً بتلك الفتاة فرآها تدير رأسها نحوهُ وهي خارجة . ثم احتجبنَ عن عينَيهِ وأُغلق الباب وراءهنَّ وانطفأَت مصابيح الكنيسة وسدلت الظلمة ستارها على نفسهِ . ولكنهُ لم يعبأ بالظلمة ولا بقيامهِ في مكان لا يعلم اين بابهُ بل اخذ يتلمَّس على الارض حتى وجد الوردتين فجعل يقبّلها

ويقبّل الارض التي داست حبيبتهُ عليها وما هو اوّل محب فعل ذلك ولا سيّما في العصر الذي كان فيهِ · ثم زفر زفرة طويلة وتأوَّه من كبدٍ حرَّى

هذه هي الفتاة التي احبّها وحارب باسمها ولاجلها · ولم يكن قد سمع صوتها في حياتهِ مع انه رأى وجهها الصبوح مرارًا اما هي فكانت قد رأتهُ في ميدان الصراع وسمعت الشعراء يتغنّون بمدحهِ ويصفون بسالتهُ . وكان امراء المملكة ورؤساؤها يفتخرون اذا نظرت اليهم ولكنها لم تحفل باحدٍ منهم بل انقادت عن غير ارادتها الى هذا الفارس . وكانت كلما رأتهُ او سمعت عنهُ يزداد اعتبارهُ في عينيها . وكان الجميع يلهجون بمدحهِ حتى ان الشعراء الذين لا يمدحون الاَّ مَن يصلهم بالصلات السنيَّة كانوا يتغنّون بشجاعتهِ وهم لا ينتظرون منهُ شيئًا . فلم يعد يهنأ لها عيش الاَّ اذا سمعت الناس يتحدثون عنهُ ويتباهون بشجاعتهِ على حدّ قول القائل

حديثهُ او حديثٌ عنهُ يطربني   هذا اذا غابَ او ذاكَ اذا حَضَرا

ولكنها لم تطمع بحديثهِ لان بينها وبينهُ درجات لا يمكنهُ ان يتخطّاها فهي من بنات الملوك وهو من آحاد الفرسان الذين

لا ناصر لهم الّا سيفهم . ولما زاد هيامها بهِ شعرت من نفسها انهُ
هو هائم بها ايضاً وانهُ هو الرجل المعيّن بالقَدَر المحتوم ليقاسمها
نعيم الحياة وبؤسها ولكنها لم ترَ وجهاً لذلك لما بينهما من بعد
المنزلة

ولا يخفى على القارئ ان هذه الاميرة واسمها الاميرة
جوليا لما شعرت ان هذا الفارس واقع في هواها ومتدرّع بهِ
على اقتحام الاهوال اعتزّت وافتخرت . ولكنها كانت تتذمّر
بعض الاحيان من البعد الشاسع الذي بينها وبينهُ وكأَنها
تلومهُ لاتضاعهِ وعدم توخّيهِ الترفُّع الى مقامها مع ان
هذا الترفُّع كان ضرباً من المحال على مَن في منزلتهِ . وكان
يخطر لها احياناً انهُ يجب عليها هي ان تخاطر بنفسها وتمدّ
يدها لهُ لترفعهُ الى منزلتها ثم يتراءى لها علوُّ حسبها ونسبها
فتطأطئ محبتها لكبريائها حاسبةً ان كل تنازل تتنازلهُ يحطُّ
قدرها في عينيهِ . ومع كل تحفُّظها وتوقّيها لم تقدر ان تخفي
عنهُ ما بها من الغرام والّا فكيف قدر ان يميّز يدها في
الكنيسة وهو لم يرَ منها الّا اصبعين وكيف علم ان الوردتين
رمتهما لهُ عن قصدٍ منها

ولكنهُ لم يزل مرتابًا في امرها وكان كلما رأى علامةً تدلُّ على محبتها لهُ يقوم في نفسهِ الف شكٍّ على انها ربما فعلت ذلك عن غير قصد او ربما خدعتهُ عيناهُ او أرتهُ المخيّلة ما لا حقيقة لهُ ولا سيما لان دلائل المحبّة لم تكن متواصلة بل كان بينها فترات طويلة كأن هذه الاميرة كانت تخاف ان يعرف احد حبها لهُ فيحسدهُ ويسعى في هلاكهِ او انهُ هو يظنُّ بها التعرُّض لهُ فيحتقرها على حدِّ قول القائل

عرَضْنا انفسًا عزَّت علينا عليكم فاستخفَّ بها الهوانُ
ولو انَّا حفظناها لعزَّت صدقتم كلُّ معروضٍ يهانُ

الفصل الخامس

واقام الفارس ساعةً من الزمان في الظلام الدامس لا يرى الّا صورة حبيبتهِ ولا يسمع الّا صوتها ولم يخطر ببالهِ انهُ في بلاد كثيرة المخاطر ولا كان يحسب لشيءٍ حسابًا ما دامت حبيبتهُ على مقربةٍ منهُ . وفيما هو غائص في بحار الافكار سمع صفيرًا خارجًا من تحت الارض فنهض على قدميهِ ووضع يدهُ على خنجرهِ فانفتح باب من الارض وخرج منهُ رجل قصير

القامة كبير الراس دميم المنظر لابسًا ثوبًا احمر وفي منطقتهِ
خنجر مذهَّب وعلى ذراعيهِ اساور من الذهب وفي يمينهِ مصباح
وفي يسارهِ مكنسة . فلما رآهُ قال في نفسهِ ما هذا القزم الأ
جنيٌّ من الجان التي تسكن المغائر والكهوف في هذه البلاد
فوقف مندهشًا لا خوفًا منهُ بل هيبةً لظنهِ انهُ فوق البشر مقدرةً
ثم ان القزم صَفَر فأُجيب صدى صفيرهِ بصفير آخر
من تحت الارض وصعد من الباب امرأة قزمة حاملة بيدها
مصباحًا آخر ولابسة ثوبًا احمر وهي تفوق الرجل في قبح
الصورة . فلما صارت بجانبهِ مشيا معًا وجعلا يكنسان الكنيسة
وكانا يبديان من الحركات والاشارات ما يضحك الثكلى .
ولما قربا من الفارس اخذا يتفرَّسان فيهِ ويردان المصباحين
حولها كأنهما يقولان لهُ تفرَّس فينا جيدًا . ثم قهقها قهقهة ادوت
لها الكنيسة . فذعر الفارس واقسم عليهما ان يخبراهُ مَنْ هما
فقال الرجل بصوت كنعيق الغراب انا القزم نكتبانس
وقالت القزمة بصوتٍ بين النعيق والصفير وانا زوجتهُ كوانفرا
فقال الفارس وما قصتكما وكيف اتيتما الى هذا المكان . فقال
القزم . انا سلطان جوج وماجوج وقد اتيت لأَتجسَّس هذه

الارض قبل الاغارة عليها. فقالت لهُ القزمة كذبتَ يا خبيث انت ملك بريتني الذي سرقتهُ الجان وانا السيدة كوانفرا المشهورة بجمالها

فالتفت القزم الى الفارس وقال لهُ ان اردتَ الحق فنحن كلانا من الامراء وكنّا عائشين في كنف الملك غالي ملك القدس ولم يتمَّ هذا الكلام حتى سمعوا واحداً يقول من خارج الكنيسة اصمتا ايها الاحمقان واخرجا من هذا المكان. فلما سمعا هذا الكلام جعلا يتسارّان فيما بينهما ثم اطفأ كلٌّ منهما مصباحهُ ونزلا من حيث صعدا وتركا الفارس في الظلام الدامس. ولكنهُ تيقَّن من كلامهما انهما من الاقزام الذين يعيشون في دور الملوك والعظماءِ. ولو جرى مجرى اهل عصرهِ لسرَّ برؤيتهما وطرب من حركاتهما ولكنهما دخلا عليهِ حينما كان يتأمَّل في اسمى المواضيع واحبها لديهِ فاغتاظ من رؤيتهما وسرَّ بانصرافهما

وبعد ان انصرف القزمان بقليل انفتح الباب الذي دخل الفارس منهُ فرأَى وراءهُ مصباحاً صغيراً وبجانب المصباح شبحاً اسود فدنا منهُ وتوسَّمهُ فاذا بهِ الناسك وهو راكع

على ركبتيهِ . فقال الناسك خُذ المصباح وانزل امامي لاني لا اقدر ان ارفع المنديل عن عينيَّ ما دمتُ في هذا المكان الطاهر . فنزل الفارس وهو لا يفوهُ ببنت شفة لان المرائي التي رآها أدهشتْ عقلهُ وما زال سائرًا حتى وجد نفسهُ في الغار الذي صعد منهُ . فقال الناسك قد عدتُ الى هذا السجن وسأبقى فيهِ اتقلَّب على جمر الغضا الى ان يقضي عليَّ الديَّان العادل . قال ذلك ونزع المنديل عن عينيهِ وتفرَّس فيهِ طويلاً ثم ردَّهُ الى مكانهِ وقال للفارس آمضِ الى فراشك ونمْ اما انا فقد حُرِمتُ النوم

فدخل الفارس الى المخدع والتفت الى الخارج قبل ان ينام فرأى الناسك قد عرَّى كتفيهِ وجعل يجلدها بالمجاليد . فقال في نفسهِ لا بدَّ من ان هذا الرجل قد ارتكب جريمة فظيعة وهو يقمع جسدهُ ويعذّبهُ لكي يتطهَّر من وصمة ذنبهِ . ولمَّا نهض في الصباح تكلَّم معهُ في الامر الذي جاء لاجلهِ واضطرَّ ان يقيم عندهُ يومين آخرين

الفصل السادس

"دع ذكر سلمى وبانات بذي سلم" واقصص علينا حديث السيف والقلم

هلمّ ايها القارئ اللبيب من غور الاردن الى معسكر الملك ريكارد ملك الانكليز بين عكاء وعسقلان وانظر الخيام المضروبة كأنها الافلاك والجنود المبثوثة في عرض البرّ كأنها عراجل الاسود . بهؤلاء الابطال جاء قلب الاسد[1] من بلاده عازماً على افتتاح اورشليم وردّها للنصارى ولكن خانهُ السعد واحبطت الخيلاء مساعيهُ فاغتاظ منهُ أمراء الافرنج وغلّوا يديهِ وايديهم عن العمل ثم انكفأوا راجعين الى بلادهم موغرين الصدور بالاحقاد والضغائن . وكانت الامراض قد فتكت بجنودهم والشهوات قد افسدت آدابهم واضعفت ابدانهم وسيف صلاح الدين نكّلهم تنكيلاً فرجعوا الى بلادهم شرذمات متفرّقة بعد ان خرجوا منها يجرّون اذيال المجد والفخار ويتباهون بعَدَدهم وعُددهم . ولولا

---

(١) لقب ريكارد ملك الانكليز

قلب الاسد وشدَّة بأسهِ وبأس فرسانهِ ما أبقى صلاح الدين على احدٍ منهم

ولكن مهما اشتدَّ بأس الانسان لا يقوى على الامراض الخبيثة فقد اصابت ريكارد قلب الاسد حمَّى من الحميات الشديدة المضعفة طرحتهُ في فراشهِ وجعلتهُ كأضعف البشر فمنعتهُ من الحضور في المؤتمرات الحربيَّة التي كان امراء الصليبيين يعقدونها . وغلَّت ايدي الجنود كلهم فأبطلوا الحرب والصدام وتهادنوا مع صلاح الدين ولم يستعدُّوا في هذه الهدنة للزحف على بيت المقدس بل حصَّنوا معسكرهم كأنهم استبدلوا الهجوم بالدفاع . فلما بلغ ريكارد ذلك اسودَّت الدنيا في عينيهِ وكان رجالهُ يخافون منهُ خوفاً شديداً حتى اطباؤهُ لم يكونوا يجسرون ان يخالفوا لهُ امراً . ولم يكن بين حاشيتهِ الَّا رجل واحد قادر ان يقف امامهُ اذا غضب وهو البارون توما ده فو فان هذا الرجل كان يحبهُ محبةً شديدة ويفضّل سلامتهُ على كل ثمين وينهاهُ عمَّا بهِ ضيرهُ ولو خاطر بنفسهِ وكان بطلاً محنكاً جبَّاراً في قوَّتهِ خشناً في طباعهِ لا يعرف التمليق ولا التدليس يخدم مولاهُ ويسهر عليهِ لا كما

يخدم العبد سيدهُ بل كما يخدم الصديق صديقهُ قياماً بشروط الصداقة والمحبَّة .

وذات يوم كان الملك نائماً في سريره يتقلَّب متأفّفاً من شدَّة الحمّى وقد نحل جسمهُ وطال شعرهُ والبارون ده فو واقف بجانبهِ وهو طويل القامة ضخم الاعضاء كث الشعر وجههُ مغطًّى بآثار الجراح وموقفهُ بجانب سرير الملك لا يتغيَّر الاَّ حينما يجرعهُ الدواء . والخيمة التي فيها الملك اشبه بمعرض حربي منها بفسطاط ملك رفيع الشان فانها كانت مفروشة بانواع الاسلحة وغنائم الحروب وجلود الحيوانات وفيها ثلاثة كلاب من كلاب الصيد الكبيرة وهي محدقة بسيدها كأنها تقول لهُ متى تقوم وتمضي بنا الى الصيد والقنص . وترسهُ المثلَّث على مائدة صغيرة بجانب السرير وهو من الفولاذ الصقيل وعليهِ رسم ثلاثة اسود رابضة وبجانب الترس فأسهُ المشهورة التي كان يضرب بها الفارس فيشطرهُ شطرين . وعلى باب الخيمة ثلاثة من رؤساء الحرس تلوح عليهم امارات القلق وانشغال البال خوفاً على مولاهم وعلى نفوسهم اذا طال مرضهُ . وخارج الخيمة كثيرون من الخدم والحشم

وكلهم كاسف البال مبلبل الافكار . فقال الملك بعد ان سكت عن الكلام وقتاً طويلاً بسبب شدَّة الحمّى . "هل صار فرساننا نساء ونساؤنا راهبات وامحت الشجاعة من معسكر فيهِ نخبة فرسان اوربا"

فقال لهُ البارون ده فو المدنة تمنعنا عن الحرب والجلاد يا مولاي اما النساء فلا اعلم من امرهنَّ شيئاً الاَّ ان الجميلات منهنَّ ذهبنَ برفقة الملكة والاميرة الى دير عين جدي لايفاء نذرٍ نذرنهُ لاجل سلامتك

فقال الملك وكيف خاطرنَ بانفسهنَّ وذهبنَ الى مكان لا مأمن للرجال فيهِ . فأجابهُ البارون هنَّ في مأمن من كل خطر لانهنَّ اخذنَ اجازةً من صلاح الدين . فقال الملك صدقتَ ولهذا السلطان منّةٌ عليَّ ومَنْ لي بان افيهُ ايَّاها في ميدان النزال ولما قال ذلك اخرج ذراعهُ من تحت الدثار وهزَّها كما يهزُّها وهو قابض على سيفهِ او على فأسهِ . فقبض عليها البارون ده فو وردَّها الى تحت الدثار وقال لهُ أفرِغ صبركَ من هذه الحمّى

فقال انا مريض ولكن ما مرض ملوك النصارى . ماذا

اصابه ملك فرنسا ودوق النمسا . ماذا اصاب مركيز منسرات ورئيس الاسبيطارية والهيكلية . ما هذا الداء العياء وما هذا الفالج الذي منعهم عن الحركة والكلام وما هذه الآكلة التي اكلت قلوبهم ونخرت عظامهم حتى نسوا الهم وداسوا شرفهم

فقال البارون بالله عليك يا مولاي اقصر عن هذا الكلام فقد تناقلتهُ عنك الالسن وكاد شملنا يتمزَّق بسببهِ . أَوَلا تعلم انهم بدونك لا يقدرون ان يفعلوا شيئًا

فقال الملك . "دعنا من التمليق" والقى رأسهُ على وسادتهِ وصمتَ طويلاً ثم قال "يا للعار أَتضعضع احوال هؤلاء الملوك والرؤساء بمرض انسان واحد . على مَ يكون مرض ريكارد بل موت ريكارد مانعًا يمنع ثلاثين الفًا عن الزحف على اورشليم وكلٌ منهم بطل مجرَّب مثلهُ . اذا صُرِع قائدُ الوعول اختارت الوعول قائدًا آخر في الحال ليقوم مقامهُ واذا ضرَبَ الشاهينُ قائدَ الكراكي قام منها قائدٌ آخر في الحال فعلى مَ لا ينتخب هؤلاء الرؤساء قائدًا آخر عوضًا عني"

فقال البارون العفو يا مولاي فقد بلغني انهم قد تآمروا في هذا الامر وفي نيّتهم ان ينتخبوا قائدًا

فاتّقدت غيرة ريكارد وقال: أَنسيني حُلفائي وحسبوني ميتًا وانا حيٌّ أُرزق . لقد اصابوا . ومَن ينتخبونهُ عوضًا عني .

فأَجاب البارون ينتخبون ملك فرنسا فانهُ أَحقُّ بذلك من كل احد

فقال ريكارد ملك فرنسا ونا فار نخبة ملوك النصارى ولكني اخاف ان يبدل كلمة التقدُّم بكلمة التأَخُّر ويرتدّ بنا الى باريس بدلاً من الزحف على اورشليم

فقال البارون بل ربما ينتخبون دوق النمسا

فقال الملك لماذا أَلِأنهُ ضخم الجسم مثلك . هذا لا يصلح لقيادة الجيوش بل لاكل اللحوم وشرب الخمور

فقال البارون . وما قول جلالتك في رئيس الهيكليين فانهُ شجاع ماهر في فنون الحرب صاحب حكمة ودهاء ولهُ مأْرب في تخليص الارض المقدَّسة

فقال الملك لا ريب في مهارتهِ ولكن ليس من العدل ان تؤخذ الارض المقدسة من صلاح الدين الملك العادل

الكثير الفضائل والفواضل وتُعطى لهذا الساحر الذي يعبد الشيطان ويرتكب المحارم في معابد الله

فقال البارون وما قول جلالتك في رئيس الاسبيطارية فلا لوم في سيرتهِ

فقال الملك ولكنهُ بخيل منتن يبيع بالمال كل ثمين أَوَلم يَبِع اعداءنا بالمال ما لم يستطيعوا امتلاكهُ بالسيف

فقال البارون عندي انسان آخر وهو المركيز كنراد منسرّات فهو حكيم وشجاع معاً

فقال الملك هو حكيم داهية ولكنهُ ذئب في جلد خروف. واما من جهة كونهِ شجاعاً فلا يغرّنّكَ ركوبهُ جياد الخيل ولبسهُ دلاص الدروع فما كلُّ مصقولِ الحديد يمانيًا. أَوَلا تذكر اني قلت لهُ مرةً لو كان امامك ستون رجلاً من العدوّ ومعك اثنان من الفرسان أَما كنت تهجم بهما عليهم فماذا كان جوابهُ لي

فقال. اجابك ان اعضاءهُ من لحم لا من حديد وانهُ يفضِّل أن يكون لهُ قلب انسان على ان يكون لهُ قلب وحش ولو كان ذلك الوحش اسدًا. وعليهِ فلا رجاء من اخذ بيت

المقدس الاّ اذا كنت قائدًا لنا

فقال الملك. ليس الامر كذلك يا ده فو بل في معسكر النصارى كثيرون من الفرسان وهم افضل مني لقيادة الجيوش ولكن كلُّ فارس يرفع علمهُ على البيت المقدس وانا مريض ويحرمني من هذا الفخر الذي أتيت لاجلهِ لا يسلم بمن يدي حينما أشفى . واظنني اسمع صوت البوق فانظر ما هذا الصوت

فقال البارون هذه ابواق ملك فرنسا

فقال الملك ألم تعُد تسمع . هذا صوت العدوّ وهذا تهليلهُ . قال ذلك وحاول القيام من فراشهِ فحاول البارون منعهُ بكل قوّتهِ ولم يستطع حتى استعان ببعض الخَدَم . فلما رأى الملك نفسهُ عاجزًا عن المقاومة قال . أتمنعني عن النهوض ايها الخائن . لو كنتُ في صحتي لطيّرتُ دماغك

فقال البارون يا حبّذا لو كنتَ في صحتك ولو طيّرتَ دماغي

فمدّ الملك يدهُ لهُ وقال يا خادمي الامين سامحني على ما فرط مني فان الحمّى هي التي انطقتني بما نطقت . والآن اطلب منك ان تمضي وترى ما سبب هذه الضوضاء

فخرج البارون من خيمة الملك بعد ان اوصى الخدم والحشم ان ينتبهوا اشدّ الانتباه الى سيدهم وهدّدهم بالعقاب الشديد اذا بدا منهم تقصير وكانوا يخافون منهُ كما يخافون من الملك

الفصل السابع

لمّا خرج ريكارد ملك الانكليز من بلادهِ قاصداً الارض المقدسة تبعهُ جمهور من الامراء الاسكتلنديين هم ورجالهم وكانوا يركبون لركوبهِ وينزلون لنزولهِ ويحاربون تحت لوائهِ . ولكنهم كانوا ينصبون خيامهم وحدهم مستقلّين بانفسهم كانهم من أمةٍ أُخرى وشعب آخر . وكذا كان الفرنسويون والايطاليون والجرمانيون والدنيمركيون والاسوجيون . بل كثيراً ما كان هولاء الشعوب يعاملون بعضهم بعضاً بالجفاء والقسوة في غير وقت الحرب . وكان البارون ده فو اشدّ الناس كرهاً للاسكتلنديين ولكنّ ارتباطهُ معهم في الجهاد الجأهُ الى كتم ما في صدرهِ من الكره بل كثيراً ما كان يبعث لهم بالطعام والدواء من عندهِ سرّاً لا علناً عملاً

بوصية الكتاب القائل احسنوا الى مبغضيكم. وقد تقدَّم في الفصل السابق ان الملك ريكارد امرهُ ان يخرج ويرى ما سبب صوت البوق والتهليل. فلم يبعد عن خيمة الملك حتى رأى جمهوراً من العرب بجمالهم وخيولهم واقفين في قلب المعسكر وهم يضربون الابواق والطبول والجنود الانكليزية متجمعة عليهم. واوَّل شخص التقى بهِ كان السر وليم الفارس المتقدم ذكرهُ في الفصول السابقة فتأفَّف من رؤيتهِ وكان قاصداً ان يمرَّ بهِ ولا يسألهُ عن سبب هذه الجلبَة لكنَّ الفارِس دنا منهُ وقال لهُ لي معك كلام يا مولاي .

فقال البارون اختصر ما امكنك لانني ذاهب بامر الملك

فقال الفارس انا غرضي الملك لانني اتيتهُ بالشفاء

فنظر اليهِ البارون ده فو من رأسهِ الى قدمهِ كانهُ يقيس طولهُ وعرضهُ ثم قال لهُ كان الاجدر بك ان تأتي الملك بالغنائم . فاغتاظ الفارس من هذا الجواب ولكنهُ كظم الغيظ وقال أن شفاء ريكارد هو الغنيمة الكبرى لنا ولكل النصارى فهل لك ان تسمح لي بالدخول عليهِ

فقال كلَّا ما لم تخبرني بغرضك اولاً لان خيام الملوك

ليست مباحة لجميع الناس

فقال الفارس ان امر الجهاد الذي يجمعني معك يضطرني ان اغضي الطرف عما تقول وجلية الامر انني اتيت بطبيب من اطباء العرب وهو قادر ان يشفي الملك

فقال البارون ومن يكفل لنا ان هذا الطبيب لا يدس السم للملك مع الدواء

فاجابه الفارس ان حياته الكفالة

فقال البارون ان كثيرين من هؤلاء الحمقى لا قيمة عندهم لحياتهم فيسرعون الى الموت كما يسرعون الى الوليمة ·

فقال الفارس نعم ولكن صلاح الدين المعروف عندنا بالشهامة وكرم الاخلاق قد بعث بهذا الحكيم وبعث معه موكبا كبيرا يليق بشانه وهدايا للملك وبعث اليه برسالة يرجوه فيها ان يستعمل علاج الحكيم لكي يشفى سريعا ويستعد لزيارته فهل لك ان تأمر برفع الاحمال عن هذه الجمال واستقبال الحكيم بما يليق بمقامه

فقال البارون ومن يكفل لنا صدق صلاح الدين في هذا الامر وموت ملكنا كاف وحده لتخليصه من مشقة

الحرب كلّها . فقال الفارس انا اكفل امانة صلاح الدين انا اكفلها بشرفي ودمي

فقال البارون وهذا اغرب من ذاك . ابنُ الشمال يكفل ابن الجنوب . الغربيُّ يكفل الشرقي . ألا تخبرني يا مولاي كيف اتّصلتَ الى صلاح الدين والحكيم

فقال الفارس كنت مرسلاً الى ناسك عين جدي برسالةٍ سرّيّة . فقاطعهُ البارون عن الكلام وقال لهُ أما تطلعني على الرسالة وجواب الناسك . فقال كلّا لا استطيع ذلك . فقال البارون أما تعلم اني من مشيري ملك الانكليز واهل سرّهِ

فقال بلى ولكن انا لستُ من رعايا ملك الانكليز وقد ارسلني مجمع الملوك والامراء والقوّاد العظام ولهم وحدهم اردُّ الجواب

فقال البارون كُنْ رسول مَنْ شئت امّا انا فلا أدعُ احدًا يدنو من خيمة الملك ريكارد الّا برضايَ . قال ذلك ودار وجههُ وهمَّ بالانصراف فوقف الفارس في طريقهِ وقال لهُ ألا تعلم انني فارس مجرَّب ومن بيت شريف . فقال

البارون كل الاسكتلنديين يدّعون بالشرف من طفوليتهم.
امَّا من جهة كونك فارساً مجرَّباً فهذا لا انكرهُ عليك

فقال الفارس قد اعترفتَ انني فارس مجرَّب فانا اقسم
لك بتربة اجدادي وبالجهاد المقدَّس الذي اتينا لاجلهِ
لننال الفخر في هذه الحياة وغفران الخطايا في الأُخرى انهُ
لا غرض لي الاَّ شفاء ريكارد قلب الاسد

فتخشَّع البارون ده فو من هذا القسَم وقال لهُ بلطف
هَبْ يا مولاي انك مقتنع بصدق هذا الحكيم وامانتهِ فهل
يجب عليَّ ان اقتنع نفس هذا الاقتناع واسلّم ملكنا لهذا الحكيم
في بلادٍ صناعة التسميم فيها رائجة

فقال الفارس يا مولاي لا دليل عندي على امانة هذا
الحكيم الاَّ هذا وهو ان خادمي الذي ابقتهُ لي الحروب من كل
رجالي مريضٌ بالحمَّى المصاب بها الملك وهذا الحكيم اعطاهُ
دواء منذ ساعتين والآن قد خفَّت الحمَّى كثيراً. فلا ريب
عندي انهُ قادر على شفاء الملك ولا ريب عندي أيضاً بسلامة
نيَّتهِ لانهُ مرسل من قِبَل صلاح الدين الذي لا يرتاب احدٌ
منَّا في صدق طويَّتهِ. هذا والحكيم في ايدينا فلا يُعقَل انهُ يلقي

بنفسهِ في التهلكة وهو قادر ان يخرج من عندنا باوفر الصلات

فأطرق البارون الى الارض مترددًا بين الشك واليقين ثم رفع رأسهُ وقال ألا تسمح لي برؤية خادمك . فاحمرَّ وجه الفارس خجلاً ثم قال الامر اليك يا مولاي ولكن لا تنسَ حينما ترى خادمي ان اشراف اسكتلندا وامراءها لا يعيشون عيشة الترفُّه مثلكم معاشر الانكليز . قال ذلك ومشى امام البارون كأنهُ عن غير رضاهُ

فلم يُرِد البارون ان يظهر ما يدلُّ على شماتتهِ بفقر الاسكتلنديين بل قال "لا كان مَن يهمهُ الترفُّه في هذا الجهاد ومهما تكن حالنا فنحن اصلح حالاً من الشهداء والابرار الذين داسوا هذه الارض قبلنا" . وحينئذٍ بلغ مخيَّم الفارس فوجدهُ بقعة من الارض تسع ثلاثين خيمة على عدد رفاقهِ الذين كانوا معهُ وفيها اكواخ حقيرة من اغصان الاشجار وفي وسطها كوخ ارفع من غيرهِ قليلاً وعليهِ العَلَم الاسكتسي . فدخل الفارس هذا الكوخ وتبعهُ البارون فوجد في الكوخ سريرين احدهما سرير الفارس كما يظهر من الاسلحة الملقاة بجانبهِ والآخر سرير خادمهِ المريض وهو مغطًّى بثياب

الفارس واورديتهِ وامام الباب خادم آخر يضرم النار ويصلح الطعام وبجانبهِ قطعة كبيرة من لحم الغزال وهناك كلب من كلاب الصيد رابض على الارض وهو اكبر من كلاب الملك ريكارد واجمل منها منظرًا واجود اصلًا . فلما رأى البارون هرَّ عليهِ بصوت جهير كأَنهُ صوت الاسد ثم رأى سيدهُ فكفَّ عن الهرير

وكان الحكيم جالسًا بجانب سرير المريض وهو لابس قلنسوة من عمل استرخان وعيناهُ تتلألآن في وجههِ كأنهما سراجان موقدان . فوقف البارون برهة طويلة لا يسمع الَّا زفير المريض وهو نائم . وحينئذٍ قال لهُ الفارس قد مضى على خادمي ستة ايام لم يَذُق فيها النوم كما أُخبرت . فقبض البارون على يدهِ وقال لهُ يظهر لي ان خادمك غير مُلتفتٍ اليهِ الالتفات الواجب . قال ذلك بصوت عال على جاري عادتهِ فاستيقظ الخادم وقال لمولاهُ أَلا ترى ماء الكَلَيد (1) باردًا حلوًا بالنسبة الى الماء الناقع الذي كنَّا نشربهُ فلسطين . فقال الفارس للبارون ها هو مرتاح في نومهِ ولذلك يحلم ببلادهِ . وقبل ان

---

(1) اسم نهر باسكتلندا .

يتمّ كلامهُ نهض الحكيم ووضع يد المريض على السرير وكان قابضاً عليها يجسّ نبضها وامسك بالبارون والفارس واخرجهما الى خارج الكوخ وقال لهما اقسمت عليكما بعيسى بن مريم الاّ توقظا المريض لانهُ ان لم ينم مات لا محالة فاذهبا الآن وارجعا عند صلاة المساء فان نام الى ذلك الوقت نجا من الخطر وامكنهُ حينئذٍ ان يتكلم معكما. قال ذلك ورجع الى مكانهِ

امّا هما فلبثا واقفَين امام الباب وكأنّ شيئاً منع البارون عن الانصراف وكان الكلب قد قام من مكانهِ ودانا من سيّدهِ وجعل يثب عليهِ ويبصبص بذنبهِ ثم يعدو في الارض عدواً سريعاً ويعود الى سيّدهِ. وكان الاثنان ينظران اليهِ وكلاهما عارف بالصيد مولع بهِ فقال البارون هذا الكلب نادر المثال وليس عند الملك ريكارد كلب مثلهُ ولكن ألم يبلغك أمر الملك وهو انهُ لا يحق لاحد دون رتبة الارل [(١)] ان يقتني كلب صيدٍ في مخيّم الملك الاّ باذن منهُ والارجح عندي انك لم تنل هذا الاذن وانا اقول ذلك بصفة كوني مير ياخور الملك [(٢)]

---

(١) لقب من القاب الشرف وهي خمسة. الدوق والمركيز والارل والفسكونت والبارون

(٢) هو الموكل بخيول الملك وبصيدهِ

فقال الفارس وانا اجيبك بصفة كوني فارساً اسكتلندياً اني لم ابايع ملك الانكليز الملك عليَّ ولا اقسمت لهُ يمين الطاعة. نعم انني في الوقت الحاضر اذا بوّق بوق الحرب اكون اوَّل مَنْ ركب وآخر من نزل ولكن في غير ساعة الحرب لا سلطة للملك عليَّ

فقال البارون ومع هذا لا يليق بك ان تخالف امر الملك فاسمح لي ان ارسل لك حماية لهذا البطل. قال ذلك مشيراً الى الكلب

فقال الفارس هو يعرف حمايَ ولا يخرج منهُ وفي حمايَ انا احميهِ بنفسي. وكأنهُ ندم على هذا الكلام فاستتلاهُ قائلاً لا يحسن بي ان اجيبك بمثل هذا الجواب فقد يرى احد رجالكم رزول (وهو اسم الكلب) ويسيء اليهِ فيتصل الامر بنا الى ما لا نحبُّ. ولا اخفي عليك ان رزول معتمدنا في هذه البلاد وما كان الملك ليحرمنا مما لا نذوق طعم اللحم بدونهِ

فقال البارون احسنتَ فانهُ اكرم من ان يفعل ذلك والآن لا بدَّ لي من الانصراف وسأرجع نحو المساء ثم ودَّعهُ وخرج

الفصل الثامن

لما سمع الملك ما قصهُ عليهِ البارون قال لهُ ان في الامر عجبًا أَمتأَكدٌ انتَ ان هذا الاسكتلندي حرٌ صادق .

فأَجاب البارون لا يخفى على مولاي ان بلادي تجاور بلاد الاسكتلنديين وقد خبرتُ هؤلاء الناس وعرفت مكرهم ولكن يظهر لي ان هذا الرجل صادق ولو كان شيطانًا .

فقال الملك وهل هو فارس مشهود لهُ

فقال البارون انت اخبر مني بذلك

فقال الملك نعم نحن رأيناهُ يثبت ثبوت الابطال لاننا نقف في مقدمة جيوشنا لا لنفتخر بشجاعتنا كما يزعم البعض بل لنرى كيف يحارب رجالنا ونشجعهم على الثبات . وقد رأَينا هذا الفارس وسرَّنا بأْسهُ وإِقدامهُ ولكننا لم نغفل عن كبريائِهِ واعتدادهِ بنفسهِ

فقال البارون وانا ارجو منك العفو لانني جاريتهُ اليوم على كبريائِهِ . فعبس الملك وقال لهُ وكيف ذلك

فقال البارون يحقُّ لي بمقتضى وظيفتي ان اسمح لمن كان

شريف النسب ان يقتني كلبًا او كلبين من كلاب الصيد وعند هذا الرجل كلب لا يجوز التفريط فيهِ ولم ارَ احسن منهُ خلقًا فانهُ كبير الجسم اسود اللون مجدول العضَل يسبق الظبي ويصرع الثور

فضحك الملك وقال لهُ الظاهر انك سمحت لهُ باقتنائهِ فحسنًا فعلت ولكن لا تطلق يدك في السماح لغيرهِ لان هؤُلاءِ الامراءِ كثار فلا يبقون لنا صيدًا . اما من جهة الحكيم فهل صادفهُ هذا الاسكتسي في القفر

فقال البارون كلاَّ بل ان الاسكتسي كان مرسلاً الى ناسك عين جدي

فرفع الملك رأْسهُ وقال مَن تجاسر ان يرسلهُ الى عين جدي والملكة قد ذهبت الى الدير الذي هناك

فقال البارون مجمع الملوك ارسلهُ وهو لم يشأْ ان يخبرني عن الغرض من ذهابهِ . اما ذهاب الملكة فالارجح ان الملوك لا يعرفون شيئًا عنهُ

فقال الملك واين التقى بهِ نا الحكيم

فقال اخبرني انهُ التقى باميرٍ عربي في الطريق فتبارزا

ثم تصالحا وذهبا معًا الى عين جدي وهنالك علم الامير
بمرض الملك فمضى الى صلاح الدين واخبرهُ بالامر فبعث
بهذا الحكيم وشيَّعهُ بموكب عظيم كأنهُ من الامراء الكبار وبعث
معهُ رسالة وديَّة وقد ترجمها لنا الترجمان وها هي

فأَخذها الملك وقرأَها فاذا هو يقول فيها

بسم الله الرحمن الرحيم

من صلاح الدين ملك الملوك سلطان مصر والشام
وعماد الدنيا والدين الى الملك ريكار ملك الانكتار . اما
بعد فقد بلغنا ان الله تعالى ابتلاك بمرض شديد وان الاطباء
الذين عندك من النصارى واليهود عجزوا عن شفائك
لانهم لا يعتمدون على الله سبحانهُ وتعالى ولذلك بعثنا اليك
بطبيبنا الخاص . فنلتمس منك ان تكرم مثواهُ وتعتمد على
علاجهِ لكي تنال الشفاء فنستطيع ان ننهي هذه الحرب اما بالصلح
واما بالاحتكام الى السيف وهو اعدل حاكم بيننا فاني اضنُّ
ببطل كريم مثلك ان يموت حتف انفهِ واسيافنا ظمآنة الى دماء
الابطال والسلام على مَن اتَّبع الهدى

فلما اتمَّ قراءة الرسالة قال عليَّ بهذا الحكيم لعلي أُشفى

فأُقابل صلاح الدين في ميدان النزال وانصفهُ بسيفي ورمحي

فقال البارون اذكر يا مولاي ان صلاح الدين عدوٌّ لنا

فقال الملك نعم ولهذا السبب لا يريد ان اموت بالحمى بل ان اقوم واقابلهُ في ميدان النزال وأؤكد لك انهُ يحبني كما احبهُ وكما يحبُّ الابطال بعضهم بعضاً . فعارٌ عليَّ ان ارتاب في اخلاص نيتهِ

فقال البارون مهما يكن من الامر فلا يحسن ان تسلّم نفسك لهذا الحكيم قبل ان نرى فعل علاجهِ بالخادم الاسكتسي

فقال الملك ما اكثر ظنونك اذهب وانظر فعل العلاج بالرجل واما انا فقد سئمت الحياة فهي والموت عندي سيّان

فخرج البارون وفي نيتهِ ان يطلع احد رؤساء الدين على ما في نفسهِ لانهُ كان مرتاباً من امر هذا الطبيب فمضى الى رئيس اساقفة صور وكان في المعسكر وقصَّ عليهِ الخبر فطيَّب هذا قلبهُ واقنعهُ بجواز الاعتماد على الاطباء مهما كان مذهبهم . ثم قال اما هذا الطبيب ففي امرهِ ريب لان اهالي هذه البلاد ماهرون في دس السموم فيدسها بعضهم لبعض في الطعام

والشراب واللباس بل في الرسائل التي يتراسلون بها فلا يليق بنا ان نأتمنهُ على الملك قبلما نرى فعل دوائهِ بالخادم الاسكتسي فقم بنا الى خيمتهِ ولكن لا بدَّ من استعمال شيءٍ يقينا من العدوى وانا أُشير عليك ان تستعمل حصى اللبنى منقوعة بالخل . فقال البارون اشكر فضلك الاَّ ان الحمَّى لا تفعل بي والاَّ لسرت العدوى اليَّ من الملك

ثم سارا سويةً فلما بلغا خيمة الفارس الاسكتسي قال الاسقف هوذا فارس شريف معدود من الابطال يأتمنهُ الملوك في امور ذات بال وهو يضع خادمهُ في مكان لا تبيت الكلاب فيهِ فقال البارون مَن ساواك بنفسهِ ما ظلمك فان هذه الخيمة يبيت فيها الفارس نفسهُ

وكان الاسقف شيخًا جليلاً ابيض الشعر جميل المنظر طويل القامة واللحية لابسًا جبَّة من الحرير قد لُبِّست اهدابها بالفرو الثمين وبجانبيهِ خادمان واحد رافع فوق راسهِ مظلَّة من سعف النخل والآخر يروّح لهُ بمروحة من ريش الطاووس . فدخل الكوخ وهو على تلك الحالة فوجد الطبيب جالسًا بجانب المريض حيث تركهُ البارون ده فو

فلم يحفل الطبيب بدخوله ولم يقم لهُ فاغتاظ من ذلك ولكنهُ كظم الغيظ وطارحهُ السلام باللغة العربية المتفرنجة فردَّ لهُ السلام ولم يزد . فقال الاسقف اذا كنت انت الطبيب فلي مسائل اطرحها عليك لانني انا طبيب ايضاً . فاجابهُ لو كان لك ادنى المام بالطب لعلمتَ ان الاطباء لايتباحثون في غرف المرضى وحينئذٍ هرَّ الكلب من داخل الكوخ فقال الطبيب اسمع حتى الكلاب تعلم بالغريزة انهُ لا يجوز رفع الصوت بجانب المرضى فان كان لك شيءٌ تسألني عنهُ فهلمَّ بنا الى خارج الخيمة . قال ذلك ونهض وخرج امامهُ فتبعهُ الاسقف وتفرَّس في وجهه طويلاً ثم سألهُ عن عمرهِ . فقال سنو الجاهل تُعَدُّ باسرَّة جبهتهِ وسنو العالم بغزارة علمهِ فانا لم يكرَّ عليَّ اكثر من مئة عام . ولما قال ذلك نظر البارون ده فو الى وجه الاسقف مبهوتاً وانغض الاسقف رأسهُ كانهُ لم يفهم معنى الطبيب . ثم قال لهُ اين الشهادة التي تشهد انك طبيب . فقال حَسْبُكَ ان صلاح الدين الذي لا يرتاب صديق ولا عدو في صدق مقالهِ قد شهد اني طبيب فاذا تطلب فوق ذلك . فقال البارون نطلب ان نرى شيئاً

باعيننا والاَّ فلا ادعك تدنو من سرير الملك

فقال الطبيب لا يليق بالانسان ان يشهد لنفسهِ ولكن هذا المريض قد اذابت الحمَّى لحمهُ وجفَّفتْ ماء الحياة من عروقهِ فلم يبقَ بينهُ وبين الموت الاَّ خطوة وسترونَ كيف انهُ يقوم معافًى بعد قليل . فهذه هي الشهادة التي تطلبان وبذا يقضى الامر الذي فيهِ تستفتيان . ثم اخرج اسفنجة من اناءٍ فضيٍّ ووضعها على انف المريض فعطس واستيقظ وجلس في فراشهِ هيكلاً من عظام . فقال لهُ البارون أَتعرف مَن نحن . فأَجاب كلاَّ يا مولاي ولكن يظهر لي انك انت امير من امراء الانكليز وهذا من الاساقفة العظام . وحينئذٍ قال الطبيب ان هذا اعدلُ شاهديَّ وقد صار نبضهُ منتظمًا مثل نبضكم وقرَّب يدهُ الى الاسقف ليجسها فابتعد الاسقف عنها واما البارون فجسَّها وقال ان الرجل قد شُفِي من الحمَّى فهلمَّ ايها الطبيب الى خيمة الملك . ثم التفت الى الاسقف وقال ما قول سيادتكم . فقال الطبيب امهلوني ريثما اجرّع هذا الرجل الجرعة الاخيرة من الدواء ثم اخرج كاسًا من الفضة وصبَّ فيها قليلاً من الماء ووضع في الماء شيئًا موضوعًا في خرقة ابقاهُ

فيهِ خمس دقائق ثم اخرجهُ وسقى الماء للمريض وقال لهُ نم الآن وقُم معافًى باذن الله تعالى

قال الاسقف أتشفي الملك بهذا العلاج البسيط .

فقال الحكيم نعم ان لم يكن ملوككم من طينة غير طينة بقية الناس . فقال البارون قم بنا سريعًا الى خيمة الملك فان شفيتهُ فيهِ والّا اصابك من يديَّ مرض لا يقبل الشفاء .

وقبل ان يخرجا رفع المريض رأسهُ وقال بالله عليكما اخبراني اين سيدي .

فقال الاسقف ان سيدك قد أُرسل بمهمَّة ولا يرجع قبل بضعة ايام

فقال البارون لماذا تخدع الرجل — يا صاح ان سيدك قد رجع وستراهُ عن قريب

فألقى المريض رأسهُ على الوسادة ونام . وفيما هم خارجون قال الاسقف للبارون احسنت فان تطمين المريض لازم لشفائهِ فقال لهُ البارون ما تعني يا مولاي أتظن أنني اتكلم بالكذب ولو احييت بكلامي عشرة مثل هذا الرجل

فقال الاسقف ألم تقل ان سيّدهُ اي الفارس صاحب

النمر الرابض رجع من سفره

فقال نعم قلت ذلك وقد رأيت هذا الفارس منذ بضع ساعات وتكلمتُ معهُ وهذا الطبيب اتى بصحبته

فقال الاسقف ولماذا لم تخبرني قبل الآن برجوعه

فقال البارون ألم اقل لك ان الطبيب جاء مع هذا الفارس ولكن ما دخل رجوع الفارس بحذاقة الطبيب وشفاء الملك

فرفس الاسقف الارض برجلهِ وقال "لهُ دخل كبير" ثمَّ قال ولكن اين ذهب فلا بدَّ من ان خطأً قد حدث

فقال البارون هوذا خادم آخر فلنسألهُ عن سيدهِ فناداياهُ ولما وقف بين ايديهما سألاهُ عن سيدهِ فقال ان قائداً من القوَّاد دعاهُ ليمضي الى الملك قبل مجيئكما وحينئذٍ بلغت حيرة الاسقف اشدَّها فاستأذن من البارون بالانصراف فتبعهُ البارون بنظرهِ مستغرباً امرهُ الى ان غاب عنهُ ثم سار هو والطبيب نحو خيمة الملك

الفصل التاسع

لكلِّ داءٍ دواءٌ يُستطَبُّ بهِ　　والطبُّ واسطةٌ والبرءُ للهِ

فيما كان البارون سائرًا نحو خيمة الملك تردَّد في بالهِ ما راهُ من انزعاج الاسقف فلم يرَ لذلك سببًا ثم كثرت عليهِ الظنون فقال لعلَّ الاسقف والامراء والملوك متواطئُون على مولاي وفي نيتهم ان يوقعوا بهِ وقد استخدموا هذا الحكيم لهذه الغاية . فعزم ان يكاشف الملك بما جال في خاطرهِ وكان يعتقد انهُ احكم الناس كما انهُ ابسلهم

وحدث ان الملك ريكارد اشتدَّت عليهِ الحمى بعد خروج البارون من خيمتهِ فاضطربت افكارهُ وفرغ صبرهُ فارسل واستدعى السر وليم ليسألهُ عن سبب ذهابهِ من المعسكر وعن كيفيَّة التقائهِ بالطبيب . فاتى السر وليم ودخل خيمة الملك كأنَّهُ احد اتباعهِ وسجد لهُ ووقف بين يديهِ فتفرَّس فيهِ وقال لهُ أأنت وليم صاحب النمر الرابض . ممَّن اخذت رتبة الفروسيَّة . فاجاب من سيف وليم الاسد ملك اسكتلندا فقال الملك انعم بهِ سيفًا لمنح الشرف وانت اهلٌ

لذلك فانّنا قد رأيناك تثبت في مواقف القتال وتحمل على الاعداء بعزيمة صادقة ولكن مطامعك كبيرة فلا جزاء لك عندنا اعظم من العفو عنك

فحاول السر وليم ان يتكلّم ولكنهُ حصِرَ عن الكلام لانهُ لم يقدر ان يخفي ما بهِ من لوعةٍ وغرام . فقال الملك انّا وان كنا ننتظر الطاعة التامة من كل الذين يحاربون تحت لوائنا الاّ اننا نتغاضى عن بعض الذنوب مثل اقتناء فرساننا لكلاب الصيد ولو كان ذلك مخالفًا لامرنا . قال ذلك مسرورًا اذ وجد بابًا لتحويل التهمة التي اتّهم بها هذا الفارس الى اقتنائهِ لكلب الصيد

فقال السر وليم . العفو يامولاي فاننا نحن معاشر الانسكتلنديين ليس عندنا من المال والميرة ما عند امرائك الاغنياء . والعدو لا يرى منّا شدّة في الحرب اذا اقتصرنا على اكل البقول فلا بدّ لنا من لحم الصيد لتبقى قوّتنا فينا اذا اذن مولانا

فقال الملك . لا داعي لطلب الاذن مني فقد اذن لك ده فو بالصيد والقنص. فقال السر وليم انهُ اذن لي بالصيد فقط يامولاي ولكن اذا كنت تأذن لي بالقنص ايضًا وتسمح

لي بباز من بزاة الملك قدّمت لمائدتك اطيب طيور الماء لحمًا

فقال الملك لو كان عندك البازي ما انتظرت الاذن ولكن ما لنا ولهذا هات اخبرني بامر من ذهبت الى غور الاردن وعين جدي

فقال بامر مجمع الامراء

فقال الملك وكيف تجاسروا ان يرسلوك وهم لم يطلعوني على ذلك

فقال ان معرفة ذلك لا تتعلّق بي فانني كاحد افراد الجند واراني مضطرًا في هذا الجهاد ان اطيع رؤساءهُ ايًا كانوا والّا اقتدى بي عامّة الجند وفسد نظامنا وساءت حالنا .

فقال الملك احسنتَ واللوم ليس عليك بل على الذين ارسلوك وساطالبهم بما فعلوا حينما يمنُّ عليَّ الله بالشفاء . أمّا انت فماذا كان الغرض من ذهابك

فقال يا حبّذا لو طرح مولاي هذا السؤال على الذين ارسلوني فانهم يخبرونهُ بالغرض وبالاسباب الداعية اليهِ

فرفع الملك رأسهُ وقال لهُ أصدقني الخبر والّا فلا تأمن على حياتك

فقال لم انتظم يامولاي بين اهل الجهاد وانا اطلب ان تُؤمن خياني فاني قد صرفت نظري عن هذه الحياة الفانية ونظرت الى الباقية

فتفرّس فيهِ الملك وقال لهُ لقد اصبتَ فيما قلت فاسمع ايها الفارس الكريم انا احبُّ الاسكتلنديين لانهم ابطال ولو كانوا اهل عناد وانتظر منهم ان يحبوني ايضاً لانني خوّلتهم من الحقوق ما لم يخوّلهم اسلافي

فسجد الفارس لهُ وقال نعم نحن لا ننكر افضالك علينا ولولا ذلك ما اتينا للمحارب تحت لوائك بل كنا الآن نعيث في حدود مملكتك . وان كنت ترى عددنا في معسكرك قليلاً فذلك لاننا قد جدنا بانفسنا ولم نبخل بها

فقال الملك لا انكر عليك شيئاً من ذلك وبما انك تحت لوائي الآن وبما انني من رؤساء هذا الجهاد فلي الحق بمعرفة كل ما يدور بين حلفائي من المذاكرات المتعلقة بهِ فلذلك أطلب منك ان تخبرني كلَّ ما لي الحق بالاطلاع عليهِ

فقال الفارس انك حتمتَ عليَّ هذا الحتم يامولاي فانا لا اخفي عنك شيئاً مما اوتمنتُ عليهِ لاسيما واني عالم انك مقدام

هذا الجهاد واكثر الناس اخلاصاً فيهِ . فالغرض الذي ذهبتُ بِهِ الى ناسك عين جدي هو عقد صلح دائم وانسحاب جنودنا من هذه البلاد. فاقسم الملك بالله وقال خطر على بالي خواطر كثيرة ولكن لم يخطر عليهِ هذا الخاطر الذي يعود علينا بالعار والشنار . فقل لي هل ذهبتَ برضاك

فقال ذهبتُ برضايَ يامولاي لاننا اذا حُرمنا قائد جيوشنا لاسمح الله فليس لنا من مخلفة والصلح خير من الهزيمة

فقال الملك وما هي شروط الصلح قال ذلك وفؤادهُ يكاد ينصدع من شدَّة الغيظ . قال لم اطَّلع عليها لانني سلِّمتُها مختومة وأُمرت ان اسلمها للناسك مختومة

فقال الملك وما ظنك بهذا الناسك أأحمق هو ام مجنون ام خائن ام قدّيس

فقال اظنهُ يدَّعي الجنون ليتخلص من كيد اعدائهِ

فالقى الملك رأسهُ على وسادتهِ وقال لهُ وما قولك في سياستهِ

فقال يظهر لي انهُ قانط من استخلاص الارض المقدَّسة الَّا باعجوبة من السماء ما دام الملك ريكارد غير قادر على الحرب

فقال الملك فاذاً هو يذهب مذهب هؤلاء الجبناء الذين ارسلوك اليهِ ناسين عهدهم ودائسين شرفهم

فقال ارى هذا الحديث يامولاي يزيد مرضك الذي تخاف منهُ مما لك النصارى اكثر مما تخاف من جنود العدوّ

وكان الغيظ قد اخذ من الملك ريكارد كل مأخذ فاحمرّت وجنتاهُ وتقطّب حاجباهُ وطار الشرر من عينيهِ فقال للفارس دعنا من التمليق وهات اخبرني هل رأيت الملكة في عين جدي

فاضطرب الفارس وقال لم اكن عارفاً بوجودها هنالك يا مولاي

فقال الملك مشدّداً صوتهُ ألم تدخل كنيسة الراهبات الكرمليات في عين جدي أَوَلم ترَ فيها الملكة ومن معها

فقال اخذني الناسك الى كنيسة صغيرة رأيت فيها جمهوراً من المرتّلات ولكنني لم ارَ وجوههنَّ ولم اسمع اصواتهنَّ الّا في الترتيل وكنَّ يرتّلنَ معاً فلم افرق بين اصواتهنَّ ولا يمكنني ان اقول ان الملكة كانت هناك بينهنَّ

فقال الملك ألم تعرف احداً منهنَّ

فتلعثم لسان الفارس عن الجواب

فرفع الملك رأسهُ واتكأ على ذراعهِ وقال اسألك بشرفك وبرتبة الفروسيَّة التي معك ان تقول لي ألم تعرف احدًا ممَّن كان هناك

فاحتار الفارس في امرهِ وتوقَّف مدَّةً عن الجواب ثم قال عرفت بالحزر يا مولاي . فعبس الملك ونظر اليهِ طويلاً كأنهُ يقول لهُ

هي الشمسُ مسكنها في السما ٭ فعزِّ الفؤادَ عزاءً جميلا
فلن تستطيعَ اليها صعودًا ولن تستطيعَ اليكَ نزولا

ثم قال احذرْ عرين الاسد ولا تلقِ بنفسك في التهلكة ولا تتطاول الى ما لا تطولهُ ولما قال ذلك سمع ضجَّة خارج الخيمة فتغيَّر صوتهُ وقال امضِ وقُلْ لدهفو ان يسرع اليَّ بالحكيم . اواهُ لو كان صلاح الدين ينبذ معتقدهُ فاساعدهُ بسيفي على طرد هؤلاء الفرنسويين والنمسويين من بلادهِ وارجع الى بلادي مطمئن الخاطر لانهُ يحكم هذه البلاد بالعدل والانصاف

ولما انصرف السر وليم دخل احد الخدم وقال ان

بباب الملك رسولين من قبل مجمع الامراء . فقال الملك ألم يعدُّونا بين الاموات حتى الآن . ثم قال مَن هذان الرسولان فقيل لهُ رئيس الهيكليين ومركيز منسرَّات . فقال ان اخانا ملك فرنسا لا يحب المرضى اما انا فلو كان هو مريضاً ما تأخَّرتُ عن عيادتهِ حتى الآن . ثم نادى واحداً من خدمهِ وقال لهُ امشط شعري واعطني قليلاً من الماء البارد . فقال الخادم يا مولاي ان الاطباء منعوا الماء البارد عنك . فقال قاتل الله الاطباء لم يقدروا ان يشفوني فهل ادعهم يعذبونني ثم غسل وجههُ وقال قُلْ للرسولين ان يدخلا

وكان رئيس الهيكليين طويل القامة نحيف الجسم اسمر اللون لابساً ثوباً ابيض . وكانت الآراء متباينة فيهِ وفي طغمة الهيكليين كلها . وكان البعض يرشقونهم بسهام اللوم ويقولون انهم تواطأوا سرًّا مع صلاح الدين على ابقاء البلاد في يدهِ وانهم ذئاب في اثواب الحملان . اما مركيز منسرَّات فكان كهلاً شجاعاً جميل المنظر سديد الرأي انيس المحضر وكان هو ايضاً متَّهماً بالطمع والاثرة والخيانة توسيعاً لسلطتهِ في بلاد الشام . فدخلا على الملك وسلَّما ثم شرع المركيز يخبرهُ ان

مجمع الامراء ارسلها ليسألا عن صحتهِ . فقال الملك نحن نعلم ان الامراء مهتمون بسلامتنا ونعلم ايضًا انهم لم يتركوا السؤال عنّا هذه الاربعة عشر يومًا معما في ذلك من الشدّة عليهم الّا لكي لا نتشوّش افكارنا فنحسب ان المرض اشدُّ مما هو . فصمت المركيز ووقع في حيرة من هذا الجواب فتقدّم رئيس الهيكليين وجعل يخبرهُ ان مجمع الامراء يلتمس منهُ ان لا يخاطر بنفسهِ ولا يشرب الدواء الذي يعطيهِ اياهُ الطبيب العربي الّا بعد ان يفحص المجمع هذا الدواء ويتأكّد انهُ نافع غير ضارٍّ

فقال الملك ايها الرئيس الاعظم رئيس طغمة الهيكليين المقدّسة وانت ايها المركيز المعظّم تكرَّما بالخروج الى الخيمة الخارجيَّة لكي نتبصّر في مشورتكما ومشورة مجمع الامراء . فخرجا وبعد قليل اقبل الحكيم ومعهُ البارون والسر وليم ثم تأخر البارون عنهما قليلاً ليكلّم بعض الحرّاس فدخل الطبيب وسلَّم على الرئيس والمركيز فردّا لهُ السلام وقال لهُ الرئيس أتجسر ان تطبّب ملكًا من ملوك النصارى . فقال ان الله يشرق شمسهُ على الاخيار والاشرار وانا من عبيد الله فلا يحسن

بي ان اميّز في النفع بينهما

قال الرئيس أتعلم انهُ اذا مات الملك بعلاجك مزَّقنا جسدك تمزيقًا

فقال الحكيم لكلِّ أمَّةٍ اجلٌ مسمًى فان جاء اجلهم لا يستقدمون ساعةً ولا يستأخرون وما انا الاَّ آلة في يد الله تعالى فلا استطيع ان أُغيّر القدر المحتوم

فقال المركيز ايها الرئيس المحترم ان هذا الحكيم لم يعلم ما اجمع عليهِ امرنا . فاعلم ايها الحكيم الذي لا نرتاب في مهارتهِ ان مجمع امرائنا يدعوك لتبيّن لهُ امام جمهور من نخبة الاطباء ما هو الدواء الذي تعتمد عليهِ لشفاء هذا الملك العظيم الشان وهنا اسلّمُ لك في الاقدام على هذا الامر الخطير

فأجاب الحكيم قد فهمت مرادكما ولكنَّ صناعة الطب لها رؤساء كالسياسة وشهداء كالديانة : وانا أُرسلت بامر سلطان السلاطين لكي اداوي هذا الملك واشفيهُ باذن الله تعالى . فاذا عجزتُ عن شفائهِ فسيوفكم ضمانة لدماء المؤمنين . ولكنني لا اتناظر مع اطبائكم ولا اطلعهم على الادوية السرّيّة التي استعملها فلا تؤخراني عن معالجة المريض . ثم دخل

البارون وقال مَن يريد ان يؤخرك كفانا تهاملاً وتأخراً ثم حيّ الرئيس والمركيز وهمّ بالدخول الى خيمة الملك . فقال لهُ المركيز بالفرنسوية ألم يبلغك اننا اتينا من قِبَل مجمع الامراء لكي نبيّن للملك الخطر الشديد في اعتمادهِ على طبيب مرسل من العدوّ

فقال البارون ايها المركيز المحترم لا اقدر ان اطيل الكلام ولا احبُّ ان اسمع الكلام الطويل واني اركن الى ما رأتهُ عيني اكثر مما اركن الى ما تسمعهُ اذني

فقال المركيز ان الملك نفسهُ اباح لنا الحضور حينما يأتي الطبيب

فتكلَّم البارون مع الحارس كأنهُ يستخبرهُ عن صدق كلام المركيز ثم قال للمركيز وللرئيس يا سيديَّ اصبرا قليلاً فلا اعارضكما في الدخول ولكن ليكن معلوماً عندكما انكما اذا اعترضتما الحكيم اضطررتُ ان اخرجكما من خيمة الملك كرهاً لانني واثق بمهارة هذا الحكيم وفائدة دوائهِ حتى لو رفض الملك نفسهُ ان يشربهُ لأجبرتهُ على شربهِ - ثم التفت الى الحكيم وقال لهُ ادخلْ بنا ايها الحكيم

فعبس الرئيس والتفت الى المركيز فرآهُ كأنهُ غير مبالٍ فهدأ روعهُ ثم دخلا كلاهما وراء البارون والحكيم ودخل السر وليم وراءهما ووقف بعيدًا . ولما صاروا بين يدي الملك حيَّاهم وقال اما ان أردَّ اليكم عن قليل او تردّوني الى التراب الذي أُخذتُ منهُ . ثم التفت الى البارون وقال لهُ وانت ايها البارون قد خدمتَ مولاك خدمة صادقة فلكَ الشكر منهُ في الحياة والممات ثم التفت الى آخر الخيمة وقال قد بقي واحد آخر وهو صاحبنا الاسكتلندي الذي يريد ان يصعد الى السماء بدون سلَّم — اهلًا بهِ ومرحبًا . هلمَّ ايها الحكيم وأرِنا مهارتك

فتقدَّم الحكيم وجسَّ نبضهُ وتأملهُ طويلاً ثم صبَّ ماءً في قدح وغطَّس في الماء الخرقة التي غطَّسها حينما داوى خادم السر وليم وهمَّ بسقي الماء للملك فقال الملك قد جسستَ نبضي فأعطني يدك لأجسَّ نبضك لانني انا ايضًا لي مشاركة في هذه الصناعة . فمدَّ الحكيم يدهُ فقبض الملك عليها ثم قال لا اضطراب ولا انزعاج وما هذا شأن مَن يسمُّ الملوك . ثم التفت الى البارون وقال لهُ ان عشتُ او متُّ فاصرفْ هذا

الطبيب مكرَّماً مبجَّلاً وقال للطبيب وانتَ يا صاحِ احمل تحيَّتنا الى السلطان صلاح الدين . وانا ان متُّ فهو بريءٌ من دمي وان عشتُ كافأتهُ مكافاةَ الابطال . ثم رفع رأسهُ وتناول الكأس وقال اني اشرب هذه الكأس على شرف اوَّلِ فارسٍ يدقُّ رمحهُ في باب اورشليم وخزي اوَّل فارس يرتدُّ عن هذا الجهاد ثم كرعها كلها والقى رأسهُ على وسادتهِ ونام . وحينئذٍ اشار الحكيم الى الحضور ان يخرجوا من الخيمة ولا يبقى فيها معهُ الاَّ البارون ده فو

الفصل العاشر

ستكشفُ الاسرارُ من طيِّ رمسها ... وتبدي لكَ الايامُ ما كنتَ جاهلا

وقف مركيز منسرَّات ورئيس الهيكليين في باب خيمة الملك فرأيا حولها حلقة من الحرس بالحراب والقسي محيطة بها احاطة الهالة بالقمر لكي لا يدنو منها احد والملك نائمٌ وهم صامتون منكَّسون رؤُوسهم كأنهم في جنازة . فقال الرئيس لرفيقهِ قد انقلب فرح هؤُلاء الكلاب الى نوح وجلبتهم الى سكينةٍ والدهرُ في الناسِ قلَّب

فأجابهُ المركيز أصبتَ والكلاب يُضرب المثل بامانتها لاسيادها ولا سيّما اذا كان اسيادها يجاورونها في هرجها ومرجها كهذا الملك

فقال الرئيس صدقتَ وهذا هو شأنهُ دائمًا

فقال المركيز لو كان صلاح الدين كغيرهِ من ملوك المشرق لأَراحنا منهُ بهذه الكأس ولكنهُ امين صادق منزَّه عن الغدر وقد بلغني انهُ طلب من ريكارد ان يقلدهُ رتبة الفرسان

فقال الرئيس معاذ الله لن نشرك احدًا من اعدائنا في هذا الفخر

وكانا قد بلغا فرسيهما وخدمهما فارتأَيا ان يذهبا ماشيين يستنشقان بنسيم العشاء فصرفا الخدم والفرسَين ورجعا يتهاديان في مشيهما في طريق غير مطروق ويتكلّمان عن الحصار ولكن لم يطيلا الكلام فيهِ لانهما لم يجدا ما يسرُّهما ثم التفت المركيز الى الرئيس وقال لهُ على مَ لا تطرح عنك هذا البرقع الاسود وتتكلَّم مع صديقك علانيةً . فتبسمَ الرئيس وقال ان البرقع الابيض يغطي الوجه كما يغطيهِ البرقع

الاسود . فجرَّ المركيز يدهُ على وجهِهِ وقال قد نزعت البرقع فهات اخبرني بما تراهُ من امر هذا الجهاد وما ينالنا منهُ من النفع والضرّ

فقال الرئيس ان هذا يزيل البرقع عن وجهي لا عن وجهك ولكنني أُجيبك بمثل مثَّلهُ لي احد الفهماء وهو ان فلاَّحاً اصابهُ قيظ فطلب من الله ان يمطر ارضهُ ولجَّ في الطلب كثيراً وتضجَّر من عدم اجابة طلبهِ فأراد الله معاقبتهُ على ضجرهِ فأرسل عليهِ سيلاً جارفاً غرَّقهُ مع ارضهِ

فقال المركيز اصبتَ وليتَ البحر غرَّق تسعة اعشار هذه الجيوش فكان العشر الباقي يكفي لغرضنا . بل لو تركنا ملوك اوربا وشأننا لاصطلحنا مع صلاح الدين وعشنا معهُ بالراحة والأمن اما الآن وقد اشتدَّت وطأتنا على بلادهِ فلا يمكنهُ أن يسمح لنا بالاقامة فيها

فقال الرئيس ولكن قد ينجح هؤلاء الملوك ويستردُّون البلاد

فقال المركيز وان فعلوا فما الفائدة لي ولكَ

فقال الرئيس ما المانع من صيرورتك ملكاً على اورشليم

فأجاب المركيز تحدثني النفس بذلك ولكنَّ دونهُ خرط القتاد . ولا اخفي عليك ايها الرئيس الاعظم انني أُفضِّل امارتي الصغيرة وانا مستقلٌ فيها كملوك المشرق على مملكة كبيرة لي فيها شركاء من الامراء والفرسان . ثم اذا قام ريكارد من هذا المرض فلا بدَّ من ان يسعى في تنصيب غاي لوزنيان على مملكة القدس

فقال الرئيس قد فهمتُ مرادك وعلمتُ انك مُخلِص في ما قلت فانك تفضّل ان تكون اميرًا مستقلاً في عَمَلٍ من البلاد على ان تكون ملكًا عليها كلها ويشاركك في ملكك كثيرون

قال نعم ولكن ابقِ هذا الامر سرًّا فاني لم ابُح بهِ الى غيرك

فقال الرئيس لا تخَفْ فاني اقسم لك بالهيكل الذي عاهدنا انفسنا على حمايتهِ اني اكتم سرَّك ولا ابوح بهِ

قال أَبهيكل اورشليم ام بالهيكل الرمزي الذي تشيرون اليهِ في اجتماعاتكم السرّية

فقال الرئيس باي هيكل شئت فقد اقسمت لك فبمَ تقسم لي انت

قال اني اقسم بالتاج الذي آمل لبسهُ . ومهما يكن من الامر فمصلحتنا واحدة واما اذا استولى هولاء الملوك على اورشليم فانهم يردون فرقة الهيكليين الى اعمالها القديمة وهي تمريض المرضى ومداواة الجرحى وينزعون من يدي البلاد التي انا مستولٍ عليها

فقال الرئيس الارجح ما تقول ولكن أيليق بنا ان نترجّى رجوع هؤلاء الملوك مدحورين وترك البلاد في حوزة صلاح الدين

قال المركيز نعم . وصلاح الدين لا يستغني عنّا فاذا اعطيناهُ يمين الطاعة وانضممنا الى جندهِ وقت الحاجة قهر بنا كل اعدائهِ . وطاعتنا لهُ لا يدوم امرها فان الممالك اسرع زوالاً في بلاد المشرق من الظل الزائل فغداً يموت فنستقل نحن ونوسّع نطاق ولاياتنا ويأتينا المدد من اوربا فنستولي على البلاد كلها ونستأثر بالملك فيها

فقال الرئيس هذا هو الصواب ولكن يجب ان نكون على حذر لان فيليب ملك فرنسا من احكم الملوك

قال المركيز ولهذا السبب اراهُ ينتهز الفرصة للرجوع الى

بلادهِ من هذا الجهاد الذي اقتيد اليهِ عن غير ارادتهِ لا سيَّما وانهُ يغار من ملك الانكليز ويودُّ ان يعود الى بلادهِ فينتقم منهُ هنالك

فقال الرئيس وما قولك في دوق النمسا

قال انهُ اشد غيرةً من ملك فرنسا . اما ملك فرنسا فحكيم مدبّر واما هذا فجاهل غرير. وجملة القول اننا نودُّ خروجهم من هذه البلاد وهم ايضاً ميَّالون الى ذلك كما ظهر لي من مجلسهم الاخير

فقال الرئيس ان ذلك كان ظاهراً كالشمس في رائعة النهار. ولكن قُلْ لي لماذا اجتهدتَ ان ترسل الرسالة الى صلاح الدين مع ذلك الفارس الاسكتلندي

قال لغرضين الاوَّل انهُ يسهل عليهِ مقابلة صلاح الدين لانهُ من جنود ريكارد والثاني انهُ لا يُخشى من دخولهِ على ريكارد بعد رجوعهِ واخبارهِ بشيء مما جرى لان ريكارد يكرههُ

فقال الرئيس ولكن قد حبطَتْ مساعيك لان الفارس عاد ومعهُ هذا الطبيب الذي لا بدَّ من ان يشفي ريكاردِ

سريعًا وإذا شفي فلا بدّ من ان يقود الجيوش على القدس

قال المركيز اصبرْ ترَ العجائب فانني عازم ان اوسع الخرق بين ريكارد وبين ملك فرنسا ودوق النمسا في الحال حتى اذا شفي ريكارد لا يرى له اسلم من الرجوع بمَن بقي من جنوده الى بلادهِ . ولما قال ذلك اخذهُ الرئيس بيدهِ وقال له بصوت خفي ان ريكارد لن يقوم من هذا المرض

فنفر المركيز منهُ وقال له مَن تعني أَتعني ريكارد قلب الاسد وبطَل النصرانيَّة . قال ذلك وقد امتقع وجههُ واصطكَّت ركبتاهُ فنظر اليهِ الرئيس وقال له أَأَنتَ مركيز منسرّات أَأَنتَ مشير الملوك ومدبّر الممالك . ما عهدتُكَ ترتاعُ من امرٍ كهذا

فقال المركيز أَتريد ان تجعلنا مثلاً في الدنيا وعارًا ولعنةً في كل اوربا

فقال الرئيس ان كان هذا هو رأْيك فلنقف عند هذا الحدّ ونتعاهد على عدم الاباحة بشيءٍ مما دار بيننا ولننسهُ كأَنهُ لم يكن

فقال المركيز لا يمكننا ان ننساهُ

فقال الرئيس صدقتَ فان الاحلام بالتيجان والممالك لا تُنسَى

فقال المركيز اذا كان الامر كذلك فلنسعَ اولاً في القاء الشقاق بين النمسا وانكلترا. ثم افترقا فذهب الرئيس في طريقهِ ولبث المركيز في مكانهِ يعجب من اقدام الرئيس على ما لا يجسر هو ان يُقدِم عليهِ مع ان الرئيس يسعى لخير غيرهِ وهو يسعى لخير نفسهِ

ولم يكن المركيز من الذين يحبُّون ايلام غيرهم وايقاع الضرر بهم ولم يكن فيهِ من عيب سوى انهُ طمَّاع . وفيما هو يتأمَّل في ما دار بينهُ وبين رئيس الهيكليين من الحديث ويقول في نفسهِ الارجح ان الرئيس مصيب في رأيهِ ولا بدَّ من التخلُّص من هذه الجيوش سمع الحرَّاس ينادي بعضهم بعضاً قائلين "تذكَّروا الكتاب الطاهر" وهذا كان نداؤهم الذي ينادون بهِ بعضهم بعضاً في الليل . وكان قد سمع هذا النداء مراراً كثيرة ولكنهُ لم يفقه معناهُ الاَّ الآن فشعر كأنهُ صوت من السماء جاء لتنبيههِ وردّهِ الى سواءِ السبيل فنظر حواليهِ كما نظر ابرهيم الخليل كأنهُ ينتظر كبشاً للمحرقة بدل ملك

الانكليز الذي كان الرئيس عازماً ان يضحيهُ على مذبح مطامعهِ فوقع نظرهُ على العَلَم الانكليزي وكان مرفوعاً على رابية صناعية في وسط المحلة فخطر لهُ خاطر سريع اراح افكارهُ وهدأ روعهُ . فمضى الى خيمتهِ ونام تلك الليلة وهو يقول غداً امضي الى دوق النمسا فأرى ماذا نصنع لنوال مآربنا قبل ان نعمل برأي رئيس الهيكليين

الفصل الحادي عشر

ان ليوبولد دوق النمسا العظيم هو اوَّل امير تنصَّب على بلاد النمسا والذي نصَّبهُ عليها امبراطور جرمانيا لقرابة بينهما. وقد اشتهر هذا الدوق في التاريخ بانهُ قبض على ريكارد ملك الانكليز وهو راجع الى بلادهِ متخفياً وسجنهُ زماناً طويلاً ولم يخرجهُ من سجنهِ الاَّ بعد ان فدى نفسهُ بمال كثير وتوسط امرهُ الحبر الروماني وملوك اوربا . وكان طويل القامة قوي البنية جميل المنظر اشقر الشعر ولم يكن من اهل السياسة والنظر ولا من اهل الطمع والدسائس ولكنهُ كان ضعيف الرأي كثير الغرور يضيع حقوقهُ باهمالهِ ثم يطالب بها حينما

تفوت الفرصة ويتعذّر عليهِ نوالها . وكان يشعر من نفسهِ بذلك ويقول انهُ غير كفءٍ للمنصب الذي هو فيهِ . ولمّا انضمَّ الى الصليبيين حاول ان يصادق ريكارد ملك الانكليز فلمّا رأى ريكارد انهُ اشجع منهُ واقدر استخفَّ بصداقتهِ ولاسيما لمّا رآهُ نهمًا في الاكل محبًّا للخمر . فاغتاظ الدوق من ذلك وابغض ريكارد بغضًا شديدًا . ويقال ان فيليب ملك فرنسا سعى في القاء النفرة بينهما لانهُ كان مغتاظًا من اقدام ريكارد واعتدادهِ بنفسهِ

ثمَّ سعى مركيز منسرّات بتوسيع الخرق فمضى الى محلَّة الدوق واخذ معهُ خمرًا قبرصية مدعيًا انهُ اتى ليقابلها بالخمر المجريَّة فدعاهُ الدوق الى الطعام وقام لهُ بحق الضيافة

وكان الجرمانيون محافظين على بعض عوائدهم القديمة فيملأُون محل المائدة بالندماء والشعراء والاقزام وهم وقوف خلف اسيادهم يضحكون ويمرحون ويشاركونهم في شرب الخمر حتى كأنَّ المائدة في خان لا في خيمة الملك وكان الدوق يأكل من صحاف الفضة ويشرب من كؤُوس الذهب والذين يقدمون لهُ الطعام من اشراف البلاد وهم يقدمونهُ ركعًا على

ركبهم وكان متسربلاً بحلّةٍ ملكيّةٍ مبطّنةٍ بفراء القاقم ولابساً تاجاً مرصّعاً بالجواهر الكريمة وفي رجليهِ حذاء من المخمل وتحتهما كرسيّ من الفضة النقية . فاجلس المركيز عن يمينهِ اجلالاً لهُ ولكنَّ اكثر كلامهِ كان مع نديمهِ ومهرّجهِ . وكان هذان الرجلان واقفين بجانبيهِ يتناوبان الاقوال الحكمية والهزلية والمجونيّة فيقهقهُ لها الدوق ثم يلتفت الى المركيز ليرى تأثير كلامهما فيهِ . وكان المركيز يتظاهر باستحسانهِ كل ما يقولان ويترصّد فرصة للكلام في الموضوع الذي جاء لاجلهِ . فلم يطل الوقت حتى ذكر المهرّج اسم الملك ريكارد وكان من عادتهِ ان يتخذهُ موضوعاً للهزل والتهكّم . فقال المركيز يجب ان نكرم مَنْ يستحق الكرامة وقد نال ريكارد ما يستحق وزيادة لان الجميع يتغنون بمدحهِ أَفلم ينظم احدٌ منكم شيئاً في مدح اميركم المعظم . فلم يتمّ كلامهُ حتى تقدم ثلاثة من المغنين باعوادهم ليتغنوا بمدح اميرهم فسكتهم النديم وجعل ينشد باللغة الجرمانية ما ترجمتهُ

مَنْ للرياسةِ والسياسةِ والحِجى	مَنْ قائدُ الاقيالِ في يومِ القتالْ
مَنْ فارسُ الفرسانِ في يومِ الوغى	مَنْ قاهرُ الابطالِ في يومِ النزالْ

فاعترضهُ المهرّج وقال بيّن لنا انك تريد بذلك اميرنا المبجّل فقال

ان تسألوا أُشتُرِيَا ماذا جرى — حتى يُرَى عَلَمُها يعلو العوالْ
فسائلوا النسرَ الرفيعَ المُرتقى — على مَ يعلو للعلا فوق الجبالْ

ثم قال ان النسر شعار اميرنا المعظَّم بل ملكنا المبجَّل وهو يعلو على كل الطيور. فقال المركيز ولكن الاسد وثب وثبة فَعَلاَ فوق النسر. فاحمرَّ وجه الدوق والتفت الى المركيز فقال النديم المعذرة يا مولاي ما من اسد طار فوق النسر لان الاسد لا جناح لهُ. فقال المهرّج الَّا اسد البنادقة. فقال الدوق معاذ الله ان يرتفع اسد تجار البنادقة فوق نسرنا

فنظر اليهم المركيز وقال ما عنيت اسد البنادقة بل آساد انكلترا الثلاثة فقد قيل ان هذه الآساد كانت نمورًا والآن صارت آسادًا وفي نيتها ان تتسلَّط على كل الوحوش والطيور والاسماك

فقال الدوق هل تظن ان ملك الانكليز يدَّعي بالسيادة علينا نحن معاشر الملوك والامراء المخالفين لهُ في هذه الحرب

فقال المركيز هذا دليل الحال أفما ترى عَلَمَهُ مرتفعًا في وسط المحلَّة كأَنهُ الملك المالك على هذا الجمهور كلِهِ

فقال لهُ الدوق وهل تصبر على ذلك وتتكلم عنهُ بدم بارد

فقال المركيز وهل يحسن بي ان اتشكّى من امرٍ خضع لهُ ملك فرنسا ودوق النمسا فالعار الذي تلتحفان بهِ لا أُلام اذا جاريتكم عليهِ. فضرب الدوق المائدة بيدهِ وقال طالما قلت لفيليب (ملك فرنسا) ان هذا يحط شأننا وشأن الامراء الذين معنا فكان لا يكترث لكلامي بل يقول لا يليق بنا ان نلتفت الى هذه الامور في مثل هذه الحال

فقال المركيز ان فيليب ملك حكيم ولذلك يعدُّ خضوعهُ للملك الانكليز من السياسة اما انت فلا بدَّ من سبب آخر لخضوعك . فحملق الدوق وقال لهُ ماذا تقول انا دوق النمسا العظيم أَفاخضع لهذا الترمندي لا وقبَّة السماء . هلمَّ يا رجالي لنضع نسر النمسا حيث لا يعلو عليهِ علَم من اعلام الملوك والقياصرة . قال ذلك وقام من ساعتهِ واختطف علَمهُ من امام خيمتهِ والجميع يضجُّون باصوات الفرح والحبور . فاعترضهُ المركيز وقال لهُ ليس من الحكمة يامولاي ان تشوّش العسكر في هذه الساعة من النهار فاصبر قليلاً . فقال الدوق "ولا دقيقة" . ثم هرول نحو الاكمة التي عليها العلَم الانكليزي وتبعهُ اهل بلاطهِ فلما بلغها وضع يدهُ على الرمح الذي عليهِ

العَلَم الانكليزي وهمَّ ان ينزعهُ من الارض فتقدَّم اليهِ النديم وقال لهُ احذر يا مولاي فان للاسد انيابًا . فقال الدوق وللنسر مخالب . فقال النديم النسر ملك الطيور والاسد ملك السباع فدع عَلَم الاسد في مكانهِ وانصب عَلَم النسر بجانبهِ . فالتفت الدوق ليرى المركيز ويستشيرهُ في الامر فلم يجدهُ بين الجماعة لان المركيز لم يرافقهُ بل سار بين العساكر وجعل يخاطب كل مَنْ يراهُ من اهل المقامات ويتأسف من اقدام الدوق على هذا العمل في ظهيرة النهار . فلما رأى الدوق ان المركيز لم يتبعهُ رفع يدهُ عن العَلَم الانكليزي وقال ليس من غرضي ان انتقم من ملك الانكليز بل ان ابينَ حقي وارفع عَلَمي الى المقام الذي يستحقهُ . ثم امر ان يؤتى بزق خمر وقحة وسقى الحضور فطربوا وجلبوا حتى ملأُوا ضوضاؤهم المحلَّة

وفي تلك الساعة استيقظ الملك ريكارد فوجد الطبيب ان الحمَّى زالت تمامًا وانهُ لا يحتاج الى جرعة أُخرى من الدواء فجلس في فراشهِ وقال للبارون قدّم لهذا الحكيم كل ما في الخزانة من النقود وان كانت لا تبلغ الف دينار فزدهُ قيمتها جواهر . فقال الطبيب معاذ الله ان ابيع حكمتي بالمال

والجواهر . فالتفت البارون الى الملك وقال هذا العجب من قولهِ لي ان عمرهُ مئة سنة . فقال الملك انت تظنُّ انَّ لا بسالة الَّا بالسيف ولا شهامة الَّا عند فرساننا فصدِّق مقالي ان شهامة هذا الحكيم العربي ارفع من شهامة الذين يعدُّون انفسهم زهرة الفرسان . فوضعَ الحكيم يدهُ على صدرهِ وقال حَسْبي فهذا خير جزاءٍ انالهُ من الملك والآن اطلب اليك ان تنام وتتوقّى كل ما يزعجك لان النكس شرٌّ من العلَّة . فقال الملك سمعًا وطاعةً ايها الحكيم ولكن ما هذا الصوت الذي اسمعهُ وما هذه الجلبة . عليَّ بالخبر يا ده فو

فخرج البارون ده فو ثم رجع وقال هذا دوق النمسا ذاهب في المحلة مع ندمائهِ وهم سكارى

فقال الملك ما اجنَّهُ أما كان الاجدر بهِ ان يبقى في خيمتهِ ولا يجعل نفسهُ اضحوكة بين الناس . وحينئذٍ دخل مركيز منسرَّات فقال لهُ الملك ما قولك ايها المركيز في هذا الدوق . فقال اشكر الله على سلامتك ايها الملك ولكن ما لنا وللدوق فان قصتهُ لا يحسن بي ان أُشير اليها وقد كنت الآن في ضيافتهِ

فقال الملك أكنتَ ضيفًا على هذا السكّير فدعاهُ الى هذه الجلبة

فوقف البارون ده فو خلف الملك وجعل يشير الى المركيز بيديهِ وعينيهِ لكي لا يذكر شيئًا من امر العَلَم ولكن المركيز عمي عن اشاراتهِ او تعامى فقال للملك ان اعمال الدوق لا طائل تحتها وقد بلغ الامر مبلغًا لا اريد أن يكون لي فيهِ ناقة ولا جمل وهوانهُ اتى لينزع عَلَمَ انكلترا ويضع علمهُ في مكانهِ

فصرخ الملك صرخة اهتزّت لها اطناب الخيمة ونهض من فراشهِ وجعل يلبس ثيابهُ وقال للحضور كل مَن ينطق بكلمة فهو عدوٌّ لي ثم تأبَّطَ سيفهُ وخرج يعدو كالنعام الجافل. فنادى البارون ده فو باثنين من الحرس وقال لهما امضيا حالاً واخبرا لورد سلسبري ان يتبعنا برجالهِ ثم خرج وراء سيّدهِ . وأُلقي النفير في معسكر الانكليز وكان الجنود مقيلين في الظهيرة فنهضوا الى اسلحتهم وهذا يقول هجم العرب علينا وذاك مات الملك وذاك قتلهُ دوق النمسا ونحو ذلك من الاقوال. ومرَّ الملك في طريقهِ بمعسكر الاسكتلنديين. فرآهُ السر وليم الفارس المتقدّم ذكرهُ فاختطف سيفهُ وترسهُ

وجعل يعدو وراءهُ وكانت الاكمة مغطاة بالناس حتى لا يُرى شيء منها فاجتاز الملك ريكارد في وسطهم كأنهُ السفينة تمخر البحر الخضمَّ الى ان بلغ قمة الاكمة فوجد الدوق واقفاً بجانب رايتهِ يتأمل في ما صنع ويسمع ضجيج الناس الذين حولهُ فوضع الملك ريكارد يدهُ على راية النمسا ونادى بصوت كالرعد القاصف وقال مَن تجاسر ان يرفع هذه الخرقة النجسة بجانب عَلَم انكلترا . فوقف الدوق مندهشاً لا لقلَّة شجاعتهِ بل لانهُ رأى شخصاً لم ينتظر ان يراهُ في تلك الساعة . فكرَّر الملك ريكارد نداءهُ فأجابهُ الدوق "انا دوق النمسا" . فقال الملك سيرى دوق النمسا قيمة عَلَمهِ في عينَي ملك انكلترا . ثم نزع الرمح الذي عليهِ الراية وكسَّرهُ كسراً ورمى الراية وداسها برجليهِ وقال هكذا ادوس راية النمسا فهل بين فرسانك مَن يطالبني بما فعلت . فنادى جمهور من الفرسان الجرمانيين وقال كلٌّ منهم انا انا . ثم تقدَّم اشدُّهم بأساً واعظمهم هامةً وقال ايها الاخوة والاشراف قد داس هذا الرجل شرف بلادكم فهلمُّوا لانقاذهِ . قال ذلك واستلَّ سيفهُ وضرب الملك ريكارد ضربة كانت قضَت عليهِ لولا ان السر وليم

تلقاها بترسهِ . فقال الملك قد اقسمتُ بالله ان لا اضرب بسيفي فارساً من فرسان هذا الجهاد فاحيَ يا هذا احيَ لتراني وتندم . ثم قبض عليهِ ورفعهُ بين يديهِ ورماهُ من فوق الاكمة كما يرمي الحجر الصغير فوقع عند سفحها وقد تخلعت مفاصلهُ . فلما رأى الدوق واتباعهُ ما رأوا من قوَّة ريكارد وبأسهِ ارتعدت فرائصهم ووقعوا مبهوتين لا يدرون ما يفعلون . وحينئذٍ وصل سلسبري بجنودهِ وكان النفير قد امتدَّ الى مخيم ملك فرنسا فأسرع الى الاكمة مع ثلاثة من خواصهِ واندهش اشدَّ الاندهاش عند رؤيتهِ ملك انكلترا واقفاً هنالك يتهدَّد الدوق . فلما وقعت عين ريكارد عليهِ احمرَّ خجلاً لانهُ كان يهابهُ لاجل حكمتهِ ورصانتهِ ورفع رجلهُ عن علَم النمسا وتظاهر بالسكينة

وكان ملك فرنسا حكيماً حسن الرأي متبصراً في العواقب ساعياً في خير مملكتهِ وترقيتها شجاعاً مهاباً ولكنهُ كان يعتمد على سياستهِ اكثر مما يعتمد على شجاعتهِ كأنهُ يتمثل بقول القائل

الرأيُ قبلَ شجاعةِ الشجعانِ هوَ اوَّلٌ وهيَ المحلُّ الثاني
ولربما طعنَ الفتى اقرانهُ بالرأيِ قبلَ تطاعنِ الاقرانِ

ولم يكن له رأي في هذا الجهاد ولكنهُ حُمِل عليهِ بتحريض امراء مملكتهِ والكنيسة الرومانيَّة . ولو لم تكن تلك الحرب حرب اقتحام وتهوُّر لكانت السيادة فيها له لا لملك انكلترا . فلما رأَى انقياد الجمهور الى ملك انكلترا الخالي من الحكمة والتدبير ساءهُ ذلك ولم يدع فرصةً لاظهار حكمتهِ وتعقلهِ الَّا اغتنمها . وهذه الفرصة من احسن الفرص لاظهار فضل الحكمة والرصانة على الحدَّة والطيش . فقال ما معنى هذا النزاع بين اخوَين متخالفَين بين رئيسَين من رؤَساء هذا الجهاد وعمودَين من اعمدتهِ

فاغتاظ ريكارد لمَّا رآهُ ساوى بينهُ وبين خصمهِ فقال مهلاً ايها الملك المعظَّم فان هذا الدوق او الامير او العمود مهما شئتَ ان تدعوهُ قد تعدَّى على حقوقي فأَدَّبتهُ . هذا كل ما جرى

فقال الدوق ايها الملك المعظَّم اليكَ والى كل ملك وامير ارفع شكواي فان ملك انكلترا هذا قد نزع علمي وداسهُ برجلهِ

فقال ريكارد نعم فعلتُ ذلك لانك نصبتهُ بجانب علَمي

فقال الدوق قد نصبت عَلَمي بجانب عَلَمك لان منزلتي مساوية لمنزلتك

فقال ريكارد أثبت هذه المساواة بشخصك في ميدان النزال فأُعاملك كما عاملت هذه الخرقة النجسة

فقال الملك فيليب مشيراً الى الملك ريكارد مهلاً يا اخي مهلاً فانا ارى ان دوق النمسا قد اخطأَ في ما فعل. ثم اشار الى الدوق وقال لا تظننَّ ايها الدوق الكريم اننا بسماحنا لملك انكلترا ان يرفع علمهُ في وسط المحلة قد اعترفنا بسيادتهِ علينا فان ذلك لا يُعقَل أَلا ترى ان عَلَم فرنسا الذي يضطرُّ الملك ريكارد ان يخضع لهُ بسبب ما لهُ من الاملاك في فرنسا قد سمح في الاحوال الحاضرة للعَلَم الانكليزي بالارتفاع على هذه الرابية ونحن كلنا انتظمنا في سلك هذا الجهاد وطرحنا امجاد الدنيا لنفتح بسيوفنا الطريق الى القبر المقدَّس وارتضينا باختيارنا ان نعطي الرياسة لاخينا ملك انكلترا لانهُ اشدُّنا بطشاً وهذه الرياسة لا نسلّم لهُ بها في وقت آخر ولا في احوال أُخرى. وعندي انك اذا تبصَّرت في الامر ايها الدوق الكريم تتأسف لانك رفعت علمك بجانب علمهِ ومن ثمَّ لا يتأخر ملك انكلترا عن

الاعتذار اليك

فقال الدوق اني رافع دعواي الى مجلس الملوك العام وراضٍ بحكمهِ. فاستحسن فيليب ذلك وقال هذا هو الراي الصواب . فقال الملك ريكارد مخاطباً ملك فرنسا " قد اسكرتني الحمى ايها الملك وانا رجل ضعيف الحجّة في الكلام فلا اسلّم دعوى تمسُّ شرف انكلترا لمجمع الملوك ولا لمجمع الاحبار. هذا عَلَمي وكلُّ عَلَم يرتفع بجانبهِ ولو كان عَلَمَ فرنسا نفسهُ ادوسهُ كما دست هذا العَلَمَ فلا مراضاة عندي للنمسا الّا ما تقدر عليهِ هاتان اليدان الضعيفتان في ميدان النزال

فقال ملك فرنسا اني لم آتِ ايها الاخ لتجديد الخصام المخالف للقسم الذي اقسمناهُ والجهاد المقدَّس الذي ارتبطنا بهِ فلننزع ما بيننا من الضغائن ونصبهُ على روُوس اعدائنا. فقال ملك انكلترا حبذا ماقلتَ يا اخي قال ذلك ومدَّ يدهُ لهُ وتصافحا مصافحة الصداقة . فقال ملك فرنسا دع هذا الدوق الكريم يشاركنا في هذه المصافحة. فقال ريكارد لا غرض لي في مصافحة المجانين . ثم التفت الى من حولهُ وقال ان الثعالب تنساب في الليل فقم يا دهفو بجانب علَم انكلترا

هذا الليل. واحرسهُ فقال البارون ده فو ان سلامة انكلترا اهمّ عندي من سلامة عَلَمِها وسلامتها بسلامة ملكها فلا اتركهُ واحرس علمهُ . فقال لهُ الملك ما اشدَّ عنادك ثم التفت الى السر وليم وقال لهُ ايها الباسل لك عليَّ نعمةٌ وسافيك أيّاها . هوذا عَلَم انكلترا فاقم بجانبهِ ولا تبعد عنهُ واذا هاجمك اكثر من ثلاثة دفعةً واحدة فبوّق لنا فنأتي لنجدتك فاحنى السر وليم رأسهُ وقال سمعاً وطاعةً فسامضي والبس سلاحي واعود في الحال

ثم افترق ملك فرنسا وملك انكلترا وقد اضمر كلٌّ منهما الحقد لصاحبهِ الأوّل لان ملك انكلترا لم يعتبر وساطتهُ والثاني لان ملك فرنسا تداخل بينهُ وبين خصمهِ . واختلفت آراء الناس في هذا الخصام بين لائمٍ للملك انكلترا ومبرّرٍ لهُ . والتقى مركيز منسرات برئيس الهيكليين وقال لهُ انظر ما تفعل الحيلة فقد فككت رباط هؤلاء الملوك وغداً ترى سيوفهم ورماحهم متفرقة ايدي سبا . فقال الرئيس لو كان بين اولئك النسويين البلهاء من استلَّ سيفهُ وقطع الرباط الذي حللتهُ لقلت ان حيلتك نجحت النجاح التام

الفصل الثاني عشر

فيما كان السر وليم واقفًا بجانب العَلَم الانكليزي والبدر في كبد السماء كدرهمٍ ملقًى على ديباجة زرقاء وافكارهُ تتيهُ في فيافي الامالي قال في نفسهِ قد وجدتُ نعمةً في عينَي الملك ريكاردس حتى استأمنني على علَمِهِ وفوَّض اليَّ حراستهُ فقد زال البعد الذي بيني وبين الاميرة جوليا فان عشتُ عشتُ ملحوظًا من الملك ومن بنت عمهِ وان متُّ وانا في هذا الموقف الخطر طالبَ الملك بثأري وبكتني الاميرة جوليا ولم تخشَ لومة لائمٍ وهذا غاية مناي

ومرَّت الساعات عليهِ وهو يهدس في مثل ذلك ولا رفيق لهُ ولا انيس الَّا كلبهُ الكبير الذي سبق الكلام عليهِ. وكأنهُ كان عارفًا بغرض سيدهِ من الاقامة هناك فكان كلَّما سمع اصوات الحرَّاس بين هزيع وهزيع يجيبهم بالنباح كأنهُ يقول انهُ مستيقظ هو وصاحبهُ . ونحو نصف الليل نهض وجعل ينبح نباحًا شديدًا ويحاول الهجوم على جهة من الاكمة ثم يتأخر كأنهُ ينتظر امر مولاهُ . فنادى السر وليم باعلى صوتهِ

وقال "مَنْ هذا" . فسمع واحداً يقول لهُ اربط كلبك والاَّ امتنعتُ عن المجيء اليك . فقال ومَنْ تكون حتى تأْتي اليَّ الآن . ثم احدق بنظرهِ فرأَى شبحاً يدبُّ على جانب الاكمة ويقول اربط كلبك والاَّ رميتهُ بسهمٍ يخطف انفاسهُ

فقال السر وليم اترك السهم وتعال الى نور القمر والاَّ طعنتك طعنة تقضي عليك . قال ذلك واشرع رمحهُ فتقدَّم الشبح الى نور القمر واذا بهِ القزم الذي رآهُ في كنيسة عين جدي فعرفهُ وتذكَّر تلك الليلة وما رآهُ فيها فأَشار الى كلبهِ ان يصمت فصمت وربض بجانب العَلَم وهو يهرُّ . اما القزم فصعد على الاكمة وهو يلهث من شدَّة التعب ودنا من السر وليم وقال لهُ أَنسيتَ الامير نكتوبانوس فعلى مَ لا تدنو لتحيتي

فقال السر وليم كلاَّ ولكنني في موقف يمنعني عن الترحب بك . فقال القزم انّنا نسامحك بشرط ان تأْتي معنا حالاً الى الذين ينتظرونك

فقال السر وليم هذا لا استطيعهُ اذ لا بدَّ من الاقامة هنا حتى الصباح . قال ذلك وجعل يمشي بجانب العَلَم . فاعترضهُ القزم وقال لهُ اتبعني والاَّ امرتك ان تتبعني باسم التي

لو أُمِرَتِ الكواكب لخرَّت من السماء لها سجَّدًا . فانشغل بال
السر وليم وقال في نفسهِ لا يمكن ان تكون الاميرة جوليا هي
التي بعثت هذا الاحمق اليَّ ثم التفت اليهِ وقال لهُ أظنُّكَ
تعني تلك الظبية الهيفاء التي رأيتُها معك في الكنيسة . فقال
لهُ القزم أَنطِقْ ايها المتطاول ان زوجتنا وشريكتنا في المُلْك
الملكة كوانمزا تتنازل لكي تدعوك الى حضرتها معاذ الله ولكن
انظر هذه العلامة فان كنت تعرفها فانت في الخيار بين ان
تطيع امر صاحبتها او تعصاهُ . قال ذلك واعطاهُ خاتم
الياقوت الذي رآهُ في يد الاميرة جوليا . فبهت من رؤيتهِ
ووقف صامتاً برهةً من الزمان ثم التفت الى القزم وقال لهُ
إقسم عليك باعظم الاقسام ان تخبرني ممَّن اخذت هذا الخاتم
ولماذا أتيت بهِ الى هنا واحذرْ كيف تتكلم لان المقام ليس مقام
هزل ومجون

فقال القزم لا يهمُّكَ ان تعرف اكثر من ان اميرةً تأمرك
لتأتي اليها فليس لنا الآن نأمرك باسم صاحبة هذا الخاتم ان
تأتي معنا اليها . وكلُّ تأخُّرٍ منك يَعدُّ عليكَ ذنبًا

فقال السر وليم اصدقني الخبر ايها العزيز : هل تعلم

الاميرة بالمركز الذي انا فيهِ والامر المناط بي وهل تعلم ان حياتي بل شرفي متعلقان بحراستي هذا العَلَم حتى الصباح فهل تعلم ذلك وتدعوني لامضي . انها فلا بدَّ من انها ارادت ان تمزح معنا ولا سيَّما لانها اختارتك رسولاً لها

فقال القزم ابقَ على ظنك . ودار ظهرهُ وهمَّ بالانصراف وهو يقول سيَّان عندي أخلصتَ الحبَّ لهذه الاميرة ام لم تخلصهُ. فقال السر وليم اصبر قليلاً واجبني على هذا السؤال فقط وهو هل الاميرة صاحبة هذا الخاتم قريبة منا

فقال القزم ما الفرق بين كونها قريبة أو بعيدة وهل الامانة والاخلاص يتوقفان على المسافة . ولكنني اقول لك ان صاحبة الخاتم على رمية سهم منَّا

فنظر السر وليم في الخاتم طويلاً ثم قال للقزم هل يُطلَبُ مني ان ابقى عندها وقتاً طويلاً . فقال القزم ما هو الوقت فاني لا اراهُ ولا المسهُ ولا اسمعهُ فما هو الاَّ وهم. أَوَلاَ تعلم ان وقت الفارس الامين هو الواجبات التي يعملها لاجل الههِ وحبيبتهِ

فقال السر وليم اصبتَ واحسنتَ فهل تدعوني الاميرة

لعمل شيءٍ من الواجبات أوَلا يمكن تأخير ذلك الى الصباح

فقال القزم كلاّ بل لا بدَّ من مجيئك اليها حالاً وسريعاً

وهذه هي عبارتها "قل لهُ ان اليد التي ترمي الورد تقدر ان

تلبس الاكليل"

فانذعر النسر ولبث في امره واضطرب وزاد اضطرابهُ

بقول القزم لهُ اذهب معي حالاً او اعطني الخاتم. فقال لهُ اصبر

عليَّ دقيقةً. ثم قال الظاهر اني مستعبد للملك ريكارد اكثر

مما يجب عليَّ لانني اتيت الى هذه البلاد وقد عاهدت نفسي

على ان احارب في سبيل الله ولاجل التي احبها . فقال لهُ

القزم "الخاتم الخاتم رد عليَّ الخاتم الذي لا تستحق ان تلمسهُ بيدك

ولا ان تراهُ بعينك"

فقال لهُ الفارس اصبر هنيهة ولا تعترض مجرى افكاري

ثم قال لو هجم العدو الآن على المكان المعد لنزولي أ كنت ابقى

بجانب هذا العَلَم لكي لا يُمسَّ شرف انكلترا ام اهجم على العدو

واجاهد في سبيل الله — الجهاد في سبيل الله مقدَّم على كل

شيءٍ وبعدهُ الجهاد من اجل التي وقفتُ لها نفسي . ولكن اين

وعدي للملك . بالله عليك يا نكتبانُس هل المكان بعيد

فقال رمية سهم في تلك الخيمة التي عليها كرة ذهبية تلمع في ضوء القمر

فقال الفارس أَوَ يمكنني ان اعود من هناك في لحظة وان اسمع نباح الكلب من هناك فلماذا لا امضي واطلب من مالكة فؤادي ان تسمح لي با لرجوع حالاً . قال ذلك وطرح رداءهُ بجانب الراية واشار الى كلبهِ ان يبقى هناك · فربض الكلب بجانب الرداء وصرَّ اذنيهِ كأنهُ فهم مراد سيّدهِ ثم قال الفارس للقزم هلمَّ يا صاح ودعنا نسرع ما امكننا

فقال القزم انت لم تسرع الى اجابة طلبي فلا أسرع انا الى اجابة طلبك ولا اقدر ان اجاريك لو اردت لانك لا تمشي كما يمشي البشر بل تزفُّ كما يزفُّ النعام · قال ذلك وجعل يتأخَّر في مشيهِ عمدًا · فلم يرَ السر وليم والسطة الّا ان يحملهُ ويعدو بهِ فحملهُ بين يديهِ كما يحمل الباشق العصفور واسرع في عدوهِ حتى بلغ الخيمة المشار اليها وهي خيمة الملكة فوجد امامها نفرًا من الحرس فخاف ان يوقظهم بمشيهِ او بحركة سلاحهِ فوضع القزم من يدهِ وقال لهُ خذنا في طريق آخر حتى لا ينتبه الينا الحرَّاس فجعل القزم يدور بين الخيام والسر

وليم يتبعهُ حتى بلغ الخيمة فرفع سجفها ودخل من تحتهِ وقال لهُ اتبعني فتردَّد السر وليم اولاً عن الدخول وراءهُ على تلك الصورة ثم رأى ان لا سبيل لدخول الخيمة الاَّ اذا دخل من حيث دخل القزم فاحنى رأسهُ ودخل من تحت السجف دبًّا على يديهِ فقال لهُ القزم انتظرني هنا واختفى من امام عينيهِ

الفصل الثالث عشر

وقف السر وليم بضع دقائق في الخيمة ولم يكن فيها نور فندم على ما فعل ولات ساعة مندم لانهُ تعدَّى وصيَّة الملك وخالف واجباتهِ العسكرية فاراد ان يتربَّص ليعلم نهاية الامر. ثم خطر لهُ ان الاميرة جوليا ساكنة مع الملكة فاذا عُرِف انهُ دخل خيمة الملكة لم ينجُ من العقاب فعزم ان يرجع على عقبيهِ. وفيما كانت هذه الافكار تتردَّد في بالهِ سمع اصوات نساءٍ يضحكنَ ويتكلَّمنَ في الخيمة المحاذية للخيمة التي كان فيها وما بينهُ وبينهنَّ الاَّ ستار وكان في خيمتهنَّ شموع موقدة فكان يرى اشباحهنَّ خيالات وسمع واحدة منهنَّ تقول "ناديها ناديها — احسنتَ يانكتبانس مثلُكَ مَنْ يؤتمن في الحاجات"

ثم قالت أخرى "ولكن كيف نتخلص من هذا الرجل الذي
اتانا بهِ نكتبانس" فقالت ثالثة "اسمعي يامولاتي الملكة انا لم
تكن غيرة نكتبانس شديدة على زوجتهِ الاميرة كوانفرا فهي
تقضي وتصرف هذا الفارس وتعلمهُ قدر نفسهِ" . فقالت لها
أخرى احسنتِ فان زوجها اتى بهِ فعليها ان تصرفهُ
فلمّا سمع السر وليم هذا الكلام كاد يتميَّز غيظًا وهمَّ
بالانصراف واذا بالتي تكلمت اولاً تقول لالا نادوا ابنة عمنا
جوليا اولاً لكي تنظر هذا الفارس بعينها فترى تقصيرهُ في اتمام
واجباتهِ فانها قد اهتمت بامرهِ اكثر مما تقتضيهِ الحكمة . ثم سمع
واحدة تتكلم عن حكمة الاميرة جوليا ولكنهُ لم يسمع كلامها جيدًا
بل سمع الجواب الذي اجيبت بهِ وهو "ما هذه حكمة . هذه
كبرياء فلا اريد ان اضيع هذه الفرصة . انتنَّ تعلمنَ انهُ اذا
هفت واحدة منا هفوة صغيرة لا تنجو من ملامها . ها هي"
وحينئذٍ دخل الخيمة فتاة طويلة القامة وامتزجت مع
الذين فيها . فشعر السر وليم براحة في نفسهِ رغمًا عن الاضطراب
الذي اصابهُ وعن الخطر المحدق بهِ من دخولهِ خيام الملكة
في جنح الليل وسماعهِ حديثها لان التي كانت تتكلم وتلح

بحضور الاميرة جوليا هي الملكة . فقال في نفسهِ الحمد لله فان
الاميرة جوليا لا دخل لها باغرائي الى الدخول في هذا المكان
فهي بريئة من ذنبي. وكان يجب عليهِ ان ينصرف حالاً ويعود
الى حراسة الراية ولكن النفس امَّارة بالسوء فلبث في مكانهِ
يسمع ما يدور بينهنَّ من الحديث عساهُ ان يسمع صوت حبيبتهِ
وقال في نفسهِ اذا كانت الملكة استباحت حياتي وشرفي باغرائي
بالمجيء الى هذا المكان فلا يحقُّ لها ان تلومني اذا وقفتُ فيهِ
قليلاً لاتمتع بسمع مَنْ بخل عليَّ الزمان بسمعها قبلاً . وظهر لهُ
كأنَّ الاميرة جوليا كانت منتظرة امر الملكة والملكة تريد ان
تتكلَّم ويمنعها الضحك عن الكلام وبعد قليل قالت الاميرة
جوليا . يظهر لي ايتها الملكة انكِ في مجلس انس وطرب امَّا
انا فقد حان وقت نومي ولمَّا بلغني امركِ كنت قد خلعت
ثيابي لانام

فقالت الملكة لا أُؤخركِ طويلاً عن النوم يا بنت العم
ولكنني اخاف ان اخبركِ بفقد الرهن فتقلقي الليل كلهُ

فقالت الاميرة . ألم ننسَ هذه القصة — انا لم اراهن
ولكنَّ جلالتكِ ارتأيتِ هذا الرأي

فقالت الملكة يا للعجب أتنكرين انكِ راهنتِ بخاتمكِ على اسواري ان ذلك الفارس صاحب النمر لايمكن ان يُغرَى بترك حراسة العَلَم

فقالت الاميرة انتِ اعظم من ان اخالفكِ ولكن اظن ان هؤلاء السيّدات يشهدنَ ان جلالتكِ ارتأيتِ وضع هذا الرهن واخذتِ الخاتم من اصبعي غصبًا عني

فقالت احدى الحاضرات أتنكرين ايتها الاميرة انكِ مدحتِ شجاعة هذا الفارس وبيّنتِ ثقتكِ بهِ

فقالت الاميرة وان كنتُ مدحتُ شجاعتهُ فهل تتخذنَ ذلك سببًا للاشتراك مع جلالتها ومدح ما فعلتهُ . امّا انا فلم امدح هذا الفارس الّا كما مدحهُ كل الذين شاهدوا افعالهُ في ميدان القتال . وعن اي شيءٍ يتكلّم النساء وهنّ في دار الحرب الّا عن الجنود وافعالهم

فقالت احدى الحاضرات . ان الاميرة جوليا لم تزل غاضبة علينا من حين اخبرنا جلالتكِ انها رمت لهُ وردتين في الكنيسة

فقالت الاميرة للملكة اذا كنتِ جلالتكِ اتيتِ بي

لتسمعي ما تقوله جواريكِ وليس لكِ شيءٌ آخر تأمرينني بهِ فاسمحي لي بالانصراف

فقالت الملكة اصمتي يا فلوريسا ولا تنسي انكِ تتكلمين عن ابنة عم الملك وانتِ يا بنت العم العزيزة أَيصحُّ في شرعكِ ان تحرمينا من ساعة انس وقد مضى علينا ايام كثيرة في البكاء والنوح

فقالت الاميرة لتكن كل ايامكِ ايام انس يا مولاتي اما انا فالاجدر بي ان لا اضحك كل حياتي من الان — قالت ذلك وامسكت عن الكلام لشدَّة انفعالها

فقالت الملكة سامحيني يا حبيبتي ولكن ما هو ذنبنا العظيم. شابٌ أُغري باسم فتاة جميلة لان نكتيانس لم يقدر ان يغريهُ الاَّ باسمكِ . فلما سمعت الاميرة جوليا هذا الكلام صرخت قائلةً يا الهي ماذا تقولين ايتها الملكة . أَتتكلمين بالجدّ ام انتِ تمزحين . أَعرَّضتِ شرفكِ وشرف نسيبتكِ ابنة عم زوجكِ للعار والازدراء — انتِ تمزحين ولا بد

فقالت الملكة يظهر ان الاميرة جوليا غاضبة علينا لاَّنا ربحنا الخاتم فسنردهُ لكِ يا عزيزة ولكن لا تعنفينا لاننا فزنا

هذه المرَّة بالغلبة على حكمتكِ

فقالت الاميرة الغلبة ليست لكِ ايتها الملكة بل للعدوّ الذي يسمع ان ملكة انكليترا جعلت اسم نسيبتها موضوعاً للضحك والمزح

فقالت الملكة انتِ مغتاظة ياعزيزتي لاننا ربحنا خاتمكِ البديع فنحن نتنازل عن حقّنا ولا نخفي عليكِ ان خاتمكِ واسمك اغريا هذا الفارس حتى أتى الى هنا ونحن قد مسكنا السمكة فلا حاجة لنا بالطعم

فقالت الاميرة انتِ تعلمين يا مولاتي انكِ مهما طلبتِ مني فهو لكِ وانا أُفضِّل ان اخسر كل ما عندي من الجواهر على ان يُستَعمل اسمي او خاتمي لاغراء هذا الفارس وتعريضهِ للاهانة والعقاب

فقالت الملكة قولي لي انكِ تخافين عليهِ من الاهانة والعقاب . والظاهر انكِ لا تحسبين لي حساباً ولا تظنّين انني اقدر ان استرضي الملك واستمدّ لهُ العفو منهُ . لا أيتها الاميرة فغيركِ لهُ سلطة على قلوب الابطال مثلكِ . وقلب الاسد ليس حجراً بل لحمٌ ودمٌ مثل قلوبنا ولي عليهِ شيءٌ من

السلطان حتى اقدر ان استرضيهُ واجعلهُ يعفو عن هذا الفارس اذا كنتِ تهتمين بامرهِ بهذا المقدار

فانطرحت الاميرة جوليا على قدميها وقالت لها احلفكِ بحق كل الاولياء والقديسين ان تحترسي مما تفعلين فانكِ لا تعرفين الملك ريكارد الا من عهد قريب اما انا فأَعلم يقينًا ان تسكين البحر عن هياجهِ اسهل عليكِ من تسكين غضبهِ اذا غضب . بالله عليكِ اصرفي هذا الفارس ان كنتِ قد اغريتهِ ليأتي الى هنا وانا ارضى بالعار الذي لحقني من استخدام اسمي لاغرائهِ اذا كنتُ اعلم انهُ رجع الى مكانهِ

فقالت لها الملكة انهضي يا بنت العم وثقي بكلامي انهُ لا يحدث شيءٌ مما تخافين . انهضي يا حبيبتي جوليا وانا آسفة جدًّا لانني اغريت فارسًا يهلكِ امرهُ . انهضي ولا تفركي يديكِ قد سلمتُ انكِ لا تهتمين بامرهِ بل انا مستعدَّة ان أُسلم بكل شيءٍ ولا اراكِ حزينة . وأُؤكد لكِ انني اتوسط امرهُ عند الملك والقي اللوم كلهُ عليَّ وها انا ارسل الآن نكتبانس ليصرفهُ واعتذر اليهِ في وقتٍ آخر عمَّا جرى واظنهُ الآن منتظرًا امرنا في احدى الخيام القريبة

فقال القزم كلّا يا مولاتي بل هو في خيمتكِ وبيننا وبينهُ هذا الستار فاضطربت الملكة وقالت أَهو قريبٌ منّا وسامع كل ما دارَ بيننا من الحديث يا للعار . ولمّا قالت ذلك صرخ القزم وهرب من الخيمة والظاهر انها ضربتهُ حتى هرب صارخًا . ثم قالت والآن ما العمل

فأَجابتها الاميرة جوليا يجب ان نراهُ ونستميح منهُ قالت ذلك وجعلت تفكُّ عرى الستار . فنادتها الملكة وقالت لها بالله عليكِ ان تنتبهي الى لبسنا ومجلسنا والساعة التي نحن فيها ولكن قبل ان تتمّ كلامها سقط الستار الذي بينهنَّ وبين السر وليم فهربت الملكة وجواريها الى خيمة أُخرى واما الاميرة جوليا فأَخذَتْ مصباحًا بيدها ودنَتْ من السر وليم وكانت لابسة ثوبًا رقيقًا ورديَّ اللون ومتوشّحة بوشاح يغطّي كتفيها وصدرها وشعرُها الذهبي مسدول عليهِ وقصائبهُ محيطة بوجهٍ اجتمع فيهِ الورد والياسمين . وكانت تعلم هول الموقف الذي وقفَتْ فيهِ ولكنها لم تدع خجلها وحياءها يمنعانها عن الكلام مع مَن خاطر بحياتهِ وشرفهِ لاجلها فوضعَتْ المصباح من يدها وضمّتْ اطراف الوشاح حتى غطّى صدرها

وقالت عدْ ايها الفارس الى مكانك فانك قد أُغريت الى
هذا المكان اغراء

فركع امامها على ركبتيهِ كأنهُ راكع امام ملاك هبط عليهِ
من السماء فقالت ما يوقفك هنا وقد سمعت كل ما دار بيننا
وكل دقيقة تقفها مجبولة بالعار والهوان

فقال لها قد حلَّ بي العار والهوان كما تقولين ولكنني
سأُلقي نفسي على سيوف العدوّ لعلَّ الدماء تزيل العار
والهوان

فقالت لهُ لا تفعل ذلك ولا تخاطر بنفسك بل كُنْ
حكيمًا واسرع من هنا فقد تصطلح الامور ولكن اذهب سريعًا

فقال لها ولكنني اطلب منكِ اولاً ان تسامحيني على
اغتراري بنفسي الذي حملني على التصديق بانكِ تطلبين
خدمةً مني

فقالت اني اسامحك ولكن على اي شيءٍ اسامحك وانا
كنت السبب في مضرّتك اذهب سريعًا وانا اسامحك
واعرف قدرك كما اعرف قدر كل فارس شجاع . اذهب
ولا تتأخر

فقدَّم لها الخاتم الذي اعطاهُ اياهُ القزم وقال لها خذي اولاً هذا الرهن الذي جلبني الى هذا المكان

فقالت لهُ كلاَّ لا آخذهُ. ابقهِ معك علامةً لاعتباري لك بل لأسفي عليك · ولكن اذهب سريعاً وان لم يكن من اجل نفسك فمن اجلي

فلما قالت ذلك ورأَى اهتمامها بحياتهِ وسلامتهِ قال في نفسهِ هذا يساوي كل ما خسرتهُ من الشرف والكرامة فنهض وهمَّ بالانصراف ولكنهُ التفت اليها قبل ان ينصرف ليتزوَّد منها بنظرةٍ . وكانت تغالب الحياء الخاص ببنات نوعها حتى غلبها الحياء فدخلتْ من حيث خرجت واطفأَتْ المصباح . فقال في نفسهِ يجب ان اطيع امرها فخرج من حيث دخل وهو لا يلوي على شيءٍ وكان عليهِ ان يدور في الطريق الذي جاء فيهِ لكي لا يمرَّ على الحرَّاس وان يسير متمهلاً لكي لا ينتبه اليهِ احد ولا يعثر بالاطناب والاوتاد . وفيما هو في هذه الحال سمع صوتاً ارجعهُ الى عقلهِ ونبَّهَ كل قواهُ وهو نباح كلبهِ فانهُ سمعهُ نبحَ اولاً نباحاً شديداً ثم سمعهُ يعوي عواء الألم فنفر نفور الظليم وأَخذ ينتهب الارض انتهاباً رغماً عن ثقل

اسلحتهِ وعلوّ الاكمة وما زال يعدو حتى صار على قمتها وكان القمر محتجباً بالغيوم فلما بلغ قنة الاكمة ظهر نوره الساطع وأراهُ ما طيَّر صوابهُ أراهُ العَلَمَ مفقوداً ورمحهُ مكسوراً والكلب في حالة النزع

الفصل الرابع عشر

اشفقتُ من عبء البقاء وعابهِ ومللتُ من أرْيِ الزمانِ وصابهِ
ووجدتُ احداثَ الليالي اولعَتْ باخي الندى تثنيهِ عن آرابهِ

رأى الفارس ما رأى من تلك الداهية الدهياء والبليَّة الصمَّاء فغابَ عن الصواب ووقف كمَنْ وقع بهِ مسٌّ من الجنّ ثم انتبه الى نفسهِ وجعل يفتّشُ عمَّن ارتكب تلك الفعلة الشنعاء فلم يقف لهُ على عين ولا على أثر فعاد الى كلبهِ فوجد جرحهُ مميتاً والنصل مكسوراً فيهِ فلما رآهُ الكلب جعل يبصبصُ بذنبهِ ويئنُّ انين الألم الشديد ولا سيَّما عند ما حاول ان ينزع النصل من جرحهِ فاسودَّت الدنيا في عينيهِ وضاقت عليهِ بما رحبت فاغرورقَتْ عيناهُ بالدموع وبكى بكاء الثكلى ثم سمع منشداً ينشد ويقول

سلِّمْ امورَكَ للمهيمنِ كلها واهربْ اليهِ فذاكَ نعمَ المهربُ
وإذا بُليتَ بنكبةٍ فاصبرْ لها مَن ذا رأيتَ مسلّمًا لا ينكبُ

فالتفت واذا بالحكيم العربي مقبل نحوهُ فلمَّا رآهُ الحكيم يبكي ويتوجع رثى لبلواهُ وعزَّاهُ على مصابهِ وطلب اليهِ ان يسمح لهُ بمداواة الكلب ثم أخرج آلةً من جيبهِ نزع بها النصل من الجرح وذرَّ عليهِ ذرورًا اوقف الدم ثم ضمَّدهُ وعصبهُ وقال لهُ اذا سمحتَ لي ان آخذهُ الى خيمتي واعالجهُ فالارجح انهُ يشفى . فقال لهُ عليك بهِ واذا شُفي فهو لك اما انا فلم يبقَ بي حاجة اليهِ . فصفق الحكيم بيديهِ واذا باثنين من عبيدهِ دنوا منهُ فأمرهما ان يحملا الكلب الى خيمتهِ . فنظر اليهِ السر وليم وقال لهُ الوداع يا كلبي الامين الوداع يا رفيقي في السرَّاء والضرَّاء ليتَ السهم الذي اصابك اصاب قلبي وأراحني من غصص الحياة فكنت اموت في شرفي ولا التحف بالعار والازدراء . فقال لهُ الحكيم وما أصابك حتى تفضّل الموت على الحياة . فقال اصابني مصاب يعجز عنهُ طبُّكَ فدَعني وشأني . فقال الحكيم اشرح لي مصابك فلعلَّك لا تعدم مني دواء شافيًا لان الله خلقَ لكلِّ داء دواء . فقال

اتذني الملك امس الى حراسة علمه على هذه الاكمة فسرق العلم وكسر الرمح والامر كما ترى . فنظر اليه الحكيم متعجباً من امره وقال له سلاحك سليم وجسمك صحيح وما انت لتهرب من وجه العدو على ما سمعت من شهادة الناس فيك فلم يبقَ الا ان احدى ربات الجمال اللواتي تعبدونهنَّ كما تعبدون الهكم قد اغرتك وابعدتك عن هذا المكان . فقال الفارس فان كان الامر كما ذكرت فما العلاج

فقال الحكيم

اذا نبا بكريمٍ موطنٌ فلهُ ورائهُ في بسيطِ الارضِ اوطانُ

فرأيي ان تهرب من غضب الملك ريكارد الى حمى السلطان صلاح الدين

فقال الفارس انتصح لي ان استر ذنبي بترك مذهبي

فقال الحكيم اخطأتَ فان صلاح الدين لا يجبر احداً على ترك مذهبه فاسمع النصح واعمل به فانهُ قادر ان يرقيك الى ارفع المناصب . ولو علمتَ مقاصد هؤلاء الملوك والامراء المجتمعين هنا ومضمون شروط الصلح التي ذهبتَ بها الى السلطان صلاح الدين ما تأخرتَ عن قبول نصيحتي فانهم

كلهم يترضَّون وجههُ وقد عرضوا عليهِ شروطًا للصلح لا يمكنهُ ان ينتظر أحسن منها وبعضهم خاطبهُ سرًّا وعرض عليهِ أن ينضمَّ الى جنودهِ ويقاتل عساكر النصارى معهُ . ولكن صلاح الدين لا يقبل هؤُلاءِ الخائنين في معسكرهِ ولا يعقد شروط الصلح الَّا مع قلب الاسد وفي نيَّتهِ ان يسمح لهُ ببعض مدن الساحل ويبيح لهُ أن يبقي شرذمةً من جنودهِ في بيت المقدس لحماية الحجاج ويسمّي نفسهُ حامية اورشليم وفي نيَّتهِ ايضًا ان يشرف واحدة من نسيبات الملك أريكارد اسمها الاميرة جوليا بضمها الى حرمهِ[1]

فكان الحكيم يتكلَّم والسر وليم يسمع كلامهُ ولا يكترث لهُ حتى ذكر الاميرة جوليا فاجفل ولا اجفال الجمل وكاد يغيب عن الصواب وقال في نفسهِ بلغت خيانة هؤُلاءِ الملوك مبلغًا يفوق التصديق فسوَّلت لهم نفوسهم ان يشتروا الصلح بمَن وقفتُ نفسي على حبها وضحَّيتُ شرفي وحياتي على

(١) ذكر بعض المؤرخين ان الملك العادل اخا صلاح الدين كان عازمًا ان يقترن باخت الملك ريكارد وينصَّب ملكًا على اورشليم ولعلَّ المذكور فوق هو الاصح

مذبحهِ . ولكنهُ كظم الغيظ وحاول ان يستعلم من الحكيم كل ما يعلمهُ من امر هذا الزواج فقال وايُّ مسيحيٍّ يوافق على اقتران صلاح الدين باميرةٍ مسيحيَّة

فقال الحكيم أَلَمْ يبلغك ان امراء المسلمين يتزوَّجون كل يوم بفتيات النصارى في الاندلس بلا مانع ولا معارض . واذا تزوَّج السلطان صلاح الدين ببنت عم الملك ريكارد اباح لها البقاء على دينها وممارسة فرائضهِ وانزلها المنزلة الاولى بين نسائهِ

فقال السر وليم معاذ الله ان يسمح الملك ريكارد لاميرة عريقة في الحسب والنسب ان تصير زوجة لصلاح الدين ولو احلَّها فوق كل نسائهِ . فقال الحكيم اخطأْتَ فان فيليب ملك فرنسا وغيره من اقيالكم قد وعدونا ببذل الجهد في اتمام هذا الامر حسماً لهذه الحروب التي ابادت رجالهم . ورئيس صور تكفَّل بعرض الامر على الملك ريكارد واقناعهِ بالتسليم بهِ . الَّا أن صلاح الدين اخفى غرضهُ عن مركيز منسرَّات ورئيس الهيكليين لانهُ يعلم انهما يكرهان ريكارد ولا يحبَّان ان يحوز هذا الشرف . والآن انصحك ان تبادر الى صلاح

الدين حالاً وانا ابعث معك برسالة اليهِ فيرفع مقامك ويكرم مثواك . ولا تظننَّ انك تترك بلادك وديانتك لان صوالح البلادين ستصير واحدة عن قريب ولصلاح الدين منفعة من قيامك في بلاطهِ لانك تخبرهُ كيف يعامل ملوككم نساءهم فيعامل هذه الاميرة مثل معاملتهن وفقاً لما ستشترطونهُ عليهِ من الشروط . واعلم ان الله سبحانهُ قد فتح لصلاح الدين كنوز الدنيا وبسط على الخافقين ظلّهُ الظليل فاذا لذت بهِ أُسبغَ عليك عطاياهُ وحماكَ من الانس والجنّ فانهُ هو الذي قال فيهِ الرشيد النابلسي

هذا الذي كانت الايامُ تنتظرُ فليوفِ لله اقوامٌ بما نذروا

وقال فيهِ ابن الشحنة الموصلي

واني امرءٌ احببتكم لمكارمٍ سمعتُ بها والاذنُ كالعينِ تعشقُ

وقال غيرهما

الله اكبر جاء القوسَ باريها ورامَ اسهمَ دينِ الله راميها
فكم لمصر على الامصار من شرفٍ باليوسفَين فهل ارضٌ تدانيها
فبابن يعقوبَ هزّت جيدها طرباً وبابن ايوبَ هزّت عطفها تيها
قُلْ للملوك تخلّى عن ممالكها فقد اتى آخذُ الدنيا ومعطيها

واذا حننتَ الى الوطن واردتَ الرجوع الى قومك

واهلك فصلاح الدين يتوسط امرك عند مولاك فيعفو عنك ويرفع شانك

فتنفس الامير الصعداء وقال للحكيم لو لم تكن قد شفيت خادمي والملك ريكارد من مرضها لأوردتك حتفك حيث أنت واقف ولكني جزاء لمعروفك انصحك ان تخبر مَن يتجاسر على عرض هذا الامير على الملك ريكارد ان يلبس خوذةً لا تفعل بها فأسهُ التي شقّت باب عكاء بضربة واحدة

فقال الحكيم اراكَ مصرًّا على عنادك وعازمًا على تسليم نفسك للقدر المحتوم ولكن اعلم ان شريعتنا وشريعتكم تبيحان للانسان ان يفرّ من القضاء ويسعى الى النجاة

فقال الفارس معاذ الله ان افرّ من العقاب الذي استحقهُ . فقال الحكيم اذن اتركك الى عنادك واذا اراد الله بقوم سوءًا اعمى بصائرهم عن سُبُل النجاة . قال ذلك وانصرف في طريقهِ وهو يهزُّ رأسهُ . فوقف السر وليم وجعل يتأمّل في كلام الحكيم وفي ما سمعهُ من الامير شيركوه والناسك الذي في عين جدي عن سعي الملوك في عقد الصلح فانكشف لهُ سرٌّ مكنون وقال الآن فهمتُ مراد هذا الناسك الخبيث

بقولهِ ان الرجل غير المؤمن يكتسب الى الايمان بامرأتهِ المؤمنة وإذا صدقني حزري فهو قد وصف الاميرة جوليا لصلاح الدين ثم سعى في اتمام هذا الاقتران الذي يجب ان امنعهُ ما دام فيَّ رمقٌ من الحياة . قال ذلك ورمى الخوذة عن رأسهِ وأسرع الى خيمة الملك ريكارد

الفصل الخامس عشر

وعزمٍ حبستُ النفسَ عندَ عراكها حفاظًا على عوراتهِ والتهددِ
على موقفٍ يخشى الفتى عندهُ الردى متى تعترك فيهِ الفرائصُ تُرعَدِ
فان متُّ فانعيني بما انا اهلهُ وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنةَ معبدِ

لما اناط الملك ريكارد حراسة علَمهِ بالسر وليم عاد الى خيامهِ طيّب النفس قرير العين بما اظهرهُ من البسالة والاقدام امام رؤساء النصارى وقوّاد جنودهم ولا سيما لانهُ قهر واحدًا منهم فقهر بقهرهِ كثيرين من اعدائهِ . ولو حدث ما حدث لملك آخر غير الملك ريكارد لضاعف حرسهُ وابقى فريقًا من جنودهِ تحت السلاح ولكنَّ ريكارد صرف حرسهُ العادي وفرّق الخمر على جنودهِ ليشربوا فرحًا بسلامتهِ وسلامة

العَلَم الانكليزي. ولولا البارون ده فو وارل سلسبري لسكروا كلهم وعبثوا بكل نظام وترتيب

واقام الحكيم مع الملك ريكارد الى ما بعد نصف الليل بثلاث ساعات وجرَّعهُ الدواء مرَّتين ثم خرج قاصداً خيمتهُ ومرَّ في طريقهِ على خيمة السر وليم يفتقد خادمهُ وسأل عنهُ فأُخبر انهُ يحرس العَلَم على الاكمة فاتى اليهِ ووجدهُ في حالة اليأس والقنوط وجرى بينهما الحديث الذي مرَّ ذكرهُ في الفصل الماضي

وقبل شروق الشمس بساعة من الزمان دخل السر وليم خيمة الملك ريكارد بدون ان يستأذن عليهِ فنهض البارون ده فو واعترضهُ قائلاً ما هذه الجسارة. فناداهُ الملك ريكارد وقال لهُ اليك عنهُ يا ده فو فقد اقبل علينا ليخبرنا بما كان من حراستهِ . ثم اتكأَ على يدهِ ونظر الى السر وليم وقال لهُ قد حرستَ العلم نِعمَ الحراسة وعَلَم انكلترا يحرس نفسهُ فكيف وقد سُلِّمَتْ حراستهُ لفارس مجرَّب كما يقول الناس فيك

فقال السر وليم قد اخطأَ قول الناس فيَّ لان العَلَم قد أُخِذ

فقال الملك أأخذ وانت حيٌّ ترزق — هذا ضرب من المحال فاني لا ارى فيك جرحًا ولا خمشًا. فلماذا لا تتكلم. قل الحق. فلا يليق باحد ان يمزح مع الملوك. ولكنني أُسامحك ولو كذبت

فقال السر وليم اتنسبني الى الكذب ايها الملك ولكن صبرًا على مجامر الكرام. فاقسم الملك بالله ثم راجع نفسهُ وقال اذهب يا ده فو فان هذه الحمى قد ضعضعت افكاري اذهب وأتني بجلية الخبر اذهب وان كنت لا تذهب فارسل احدًا يأتينا بالخبر. وقيل ان اتمَّ كلامهُ دخل احد القواد واسمهُ السر هنري نفيل وقال ان العلَم مفقود والفارس الذي كان يحرسهُ قد قُتل لان رمح العلَم مكسَّر وبجانبهِ بركة من الدم. ثم التفت فرأى السر وليم واقفًا امام الملك فقال ولكن من هذا الذي اراهُ هنا. فنهض الملك على قدميهِ وقبض على فأسهِ الشهيرة وكانت بجانب سريرهِ وقال هذا خائن وستراهُ يموت موت الخائنين وهمَّ بضرب السر وليم على رأسهِ. ولكنَّ السر وليم وقف امامهُ حاسر الراس كانهُ صنم من الاصنام لم يفه بكلمة ولم يبدِ حركة. فنظر الملك اليهِ

والفاس فوق راسهِ ثم خفض الفاس كانهُ راجع فكرهُ وقال
أتقول لي انه قيل ان هناك بركة دم — اسمع ايها السر الاسكتسي
انا قد رأيتك تحارب حرب الابطال فقل لي هل قتلت
اثنين من اللصوص الذين سرقوا العَلَم — هل قتلت واحداً
منهم — هل ضربت ضربة واحدة من اجلنا قل واخرج من
هنا بحياتك يكفيك ما غشيك من العار

فاجابهُ السر وليم قد دعوتني يا مولاي كاذباً فلم تنصفني
فليكن معلوماً عندك انهُ لم يهرق في حراسة علمك الادم كلب
حرس العَلَم حينما تغاضى سيدهُ عن حراستهِ . ولمّا قال ذلك
رفع الملك فأسهُ وهمَّ بضرب هامتهِ فدخل البارون ده فو
بينهما وقال للملك لا يليق يا مولاي ان تقتلهُ بيدك ولا في
خيمتك فحسبنا من الخطإِ انك سلمت حراسة علمك لواحد
من الاسكتلنديين أَوَلم اقل لك مراراً انهم لا عهد عندهم ولا
ذمام

فاجابهُ الملك اصبتَ وطالما قلتَ لي ذلك وكان يجب
ان لا انسى كيف خدعني ملكهم في هذه الحرب . فقال السر
وليم ان ملكنا لم يخدعك ولكنَّ الاحوال قضت بما قضت

فقال لهُ الملك اخرسْ ولا تذكر اسم الملوك بفمك . ثم التفت الى ده فو وقال لهُ ولكنَّ في الامر عجبًا فان هذا الخائن وقف امامنا وفأسنا فوق رأسهِ كانهُ واقف لتقلّدهُ رتبة الفروسية فلو بدت منهُ علامة من علامات الخوف لطيَّرت دماغهُ تطييرًا ولكنني لا استطيع ان اضرب حيث لا خوف ولا مقاومة

فقال السر وليم يا مولاي . فقال الملك اعادت اليك قوَّة النطق اطلب الرحمة من الله ولكن لا تطلبها مني لان شرف انكلترا قد أُهين بسببك . ولو كنتَ اخي الوحيد ما امكنني ان اعفو عنك

فقال السر وليم انني اطلب الرحمة من الخالق لا من المخلوق ولكنني اطلب منك ان تسمح لي باحد خدمة الدين لاتمام فريضتي الدينية الاخيرة فان سمحتَ لي بذلك فكرمٌ منك وإلَّا فالله غفَّار الذنوب. وسواءٌ متُّ الآن او بعد ساعة فلي كلام ان تأْذن لي اقولهُ لك فهو عندك ذو بال . فقال لهُ الملك "قُلْ ما بدا لك" وكان يأْمل انهُ سيخبرهُ شيئًا عن العَلَم. فقال ان كلامي يتعلَّق بملك انكلترا فلا يحسن ان يسمعهُ احدٌ غيرهُ . فالتفت الملك الى نفيل وده فو وقال لهما اخرجا قليلاً

لنسمع ما يقول فخرج نفيل واما ده فو فقال انا لا اخرج ولا اتركك مع هذا الاسكتسي الخائن. فصرخ الملك قائلاً أتخاف علينا يا ده فو من رجل واحد. فقال ده فو لا تصرخ ولا تغتَظ يا مولاي فاني لا اترك رجلاً مريضاً عارياً مع رجل قوي مدجَّج بالسلاح. فالتفت اليهِ السر وليم وقال لا بأْس ببقائك هنا ايها البارون فانك رجل صادق امين. فقال لهُ ده فو كان يمكنني ان اقول ذلك فيك قبل الآن بهنيهة من الزمان. فلم يلتفت اليهِ السر وليم بل التفت الى الملك وقال لهُ ان الملا يأْتمرون عليك ايها الملك وفي نيتهم ان ......
ثم تلعثم لسانهُ فبلع ريقهُ وقال بصوتٍ منخفض ان الاميرة جوليا. فصرخ الملك قائلاً ما علاقة الاميرة جوليا بما نحن فيهِ. فقال الفارس ان حلفاءك عازمون ان يشتروا هذا الصلح بخرق ناموس ملوك انكلترا وتزويج الاميرة جوليا للسلطان صلاح الدين

وكان الملك ريكارد من الناس الذين ينظرون الى مَنْ قال لا الى ما قال فلا يعبد الله اذا امرهُ بذلك الشيطان ولا يعدُّ النصيحة نصيحةً اذا سمعها من شخص لا ينظر منهُ النصح

فلما سمع اسم نسيبتهِ من فم هذا الفارس وكان قد عرف طموح
نفسهِ اليها وهو في مقدمة الفرسان واستكبر ذلك منهُ ووجد
عليهِ حسب ان ذكرهُ لها الآن ذنب لا يُغتفر وكاد يتميَّز غيظاً
فقال لهُ اخرس ايها اللعين فوالله لانزعنَّ لسانك من فمك
على ذكر هذا الاسم . واعلم ايها الخائن انني رأيت طموح ابصارك
ولم اعاملك على حسب ما تستحقهُ وقاحتك لانك خدعتنا
يا معدن الخداع بانك من قوم لهم حَسَب ونسَب . والآن
تجسر ان تتلفَّظ باسم ابنة عمنا بهاتين الشفتين المدنَّستين
بذكر خياناتك فماذا يعنيك اذا تزوَّجت بواحدٍ من النصارى
او من المسلمين - ماذا يعنيك اذا صاهرتُ الامانة والبسالة في
شخص صلاح الدين وانا بين قوم ملوكهم ارانبُ في النهار
وثعالبُ في الليل وفرسانهم تخذوا الخيانة مذهباً

فقال السر وليم . لا يعنيني شيئاً وقد دنا الاجل المحتوم
ولكن لو كنتُ الآن راكعاً على النطع ما تأخرتُ عن اطلاعك
على هذا الامر الذي يمسُّ شرفك وشرف الاميرة جوليا

فرفع الملك الغاضب يديهِ وصرخ قائلاً لا تذكر اسمها
بفمك . فقال السر وليم أتمنعني عن ذكر اسمها . لا وحق من

بيدهِ نفسي لاذكرنَّ اسمها حتى آخر نسمة من حياتي . هاك رأسي فجرّب بهِ قوّتك وانظر ان كنتَ تقدر ان تمنعني عن ذكر اسمها . وقبل ان يتم كلامهُ دنا البارون ده فو من الملك وقال قد حضرت الملكة وتريد المثول بين يديك . فقال الملك لتقبل قُل لها ان تنتظر قليلاً ثم قال امضِ بهذا الخائن يا ده فو واخرج بهِ من الباب الخلفي وكبّلهُ بالحديد تكبيلاً وانت المطالب بهِ فلا بدَّ من قتلهِ حالاً ولكن جئهُ باحد القسوس قبل قتلهِ لاننا لا نريد ان نقتل جسدهُ ونفسهُ ولا تعرّهِ من علامات الشرف بل اقتلهُ كما يُقتَل الفرسان لانهُ مهما كان ذنبهُ فجرأتهُ هذه تشفع بهِ

ففرح ده فو لان الملك لم يتنازل الى قتلهِ بيدهِ فمضى بهِ سريعاً وامر بعض الشرطة فنزعوا سلاحهُ وكبلوهُ بالحديد ثم قال لهُ قد سمح الملك ان يُقطَع راسك قطعاً بالسيف بدون تعذيبك . فقال الفارس اشكر فضلهُ فان هذا يخفف المصيبة على والديَّ . ثم قال يا ابي يا ابي . فحزن البارون من هذا الكلام رغماً عن قساوة طبعهِ وقال لهُ قد سمح الملك ايضاً ان ترى احد القسوس قبل موتك وانا قد رايتُ هنا احد الرهبان

الكرمليين وهو في انتظارك . فقال عليَّ بهِ حالاً لانني قد ودَّعت الحياة الدنيا وانا الآن في انتظار الأُخرى . فقال البارون قد امر الملك ايضاً ان تستعد للموت حالاً . فقال الفارس ليكن ما أمر اما انا فلا استرحم احداً من البشر ولا اطلب تأْخير الحكم .

وحينئذٍ همَّ البارون بالخروج ولما بلغ باب الخيمة التفت الى السر وليم فرآهُ شاخصاً نحو السماءِ ولم يكن هذا البارون من الذين تؤَثر فيهم المناظر المحزنة ولكنهُ تأَثَّرَ من رؤْيتهِ فعاد اليهِ وقبض على يدهِ والقيد فيها وقال لهُ انك لم تزل في عنفوان الشباب ولم يزل ابوك حياً وانا تركتُ ابني في بلادي وكنتُ امس اودُّ ان يشبَّ فارساً مثلك . أَفلا يمكن ان افعل شيئاً من اجلك . فقال الفارس كلاَّ لانني اهملت واجباتي ولا انتظر الآن الاَّ السيَّاف . فقال البارون ليتني حرست العَلَم بنفسي ولكن ما هذا السر الخفي فما انت بجبان لانني لم ارَ احداً يحمل حملاتك في حومة القتال وما انت بخائن لان الخائن لا يقابل الموت بهذهِ السكينة فلا بدَّ من انك أُغريت اغراءً بصوت فتاة مستغيثة او حبيبة عشيقة

لا تخفِ ما فعلت بك الاشواقُ   واشرح هواك فكلنا عشاقُ

وكلنا سرنا في هذه الطريق قبلك فاخبرني بجليّة الامر ولا تقنط من العفو لان الملك سريع الغضب قريب الرضى أفلا تخبرني شيئًا . فادار الفارس وجههُ عنهُ وقال كلّا . فقام ده فو وخرج وكانهُ اغتاظ من نفسهِ لما بدا منهُ من دلائل الشفقة

الفصل السادس عشر

لم يكن بين نساء العصر اجمل من برنغاريا ابنة ملك نافار وزوجة الملك ريكارد قلب الاسد فكانت ممشوقة القدّ مهضومة الكشح بيضاء الوجه حمراء الوجنتين كما قيل

منعّمةُ الاطرافِ خود كانها   هلالٌ على غصنٍ من البانِ مائدِ
حوى كل حسنٍ في الكواعب شخصها   فليس بها الّا عيوب الحواسدِ

ولما اقترن بها قلب الاسد كان لها من العمر احدى وعشرون سنة ولكن الذي يراها يظنها في الخامسة عشرة لكثرة غنجها ودلالها وولعها بالزهو والزينة وكانت تحب زوجها حبًّا شديدًا وتعجب ببسالتهِ ولكنها تخاف بطشهُ وتهاب صولتهُ . وكان هو كَلِفًا بها ومعجبًا بجمالها ولكنهُ كان يفضّل الحديث مع

الاميرة جوليا على الحديث معها لان الاميرة جوليا كانت اعقل منها واحكم . وما كان ذلك ليضرم نار الغيرة في قلبها لانها كانت حميدة الاخلاق نبيلة الطبـاع واما جواريها فكنَّ ينتهزنَ الفرص ليجدنَ سبيلاً يتقدنَ بهِ اهمال الاميرة جوليا اخذاً بثار سيدتهنَّ . ومع كل حرصهنَّ لم يقدرنَ ان يعبنها في شيءٍ الاَّ في عدم اهتمامها الزائد بحللها وحلاها وكنَّ قد لاحظنَ ميل الفارس الاسكتسي اليها ولم يغضضنَ عن ذلك طرفاً بل كنَّ يذكرنهُ في معارض الهزل

ولمَّا ذهبت الملكة وجواريها لزيارة دير الراهبات الكرمليات في عين جدي بايعاز رئيس اساقفة صور ذهبت الاميرة جوليا معها ونزلتا معاً لزيارة الكنيسة الصغيرة التي رآهنَّ فيهـا السر وليم على ما تقدَّم . وكانت هذه الكنيسة متصلة بدير الكرمليات من جهة وبغار الناسك من أُخرى . واتفق ان الملكة وجواريها نزلنَ الى هذه الكنيسة لمَّا كان السر وليم فيها وهنَّ لا يعلمنَ شيئاً من امرهِ ولا هو من امرهنَّ فرأتهُ الاميرة جوليا وعرفتهُ ورمت لهُ الوردتين ورأَت ذلك احدى الجواري واخبرت بهِ مولاتها فبعثت اليهِ بالقزمين

المتقدّم ذكرها لتخويفهِ وكانت ملكة القدس قد اهدتها لها ·
فسمع الناسك صوتها وانتهرها على ما تقدّم · ثم عادت الملكة
من زيارتها وبلغها ما حدث في المحلّة وان السر وليم هو الموكّل
بحراسة العَلَم فبعثت اليهِ بهذا القزم نكتبانس واعطتهُ خاتم
الاميرة جوليا لاغرائهِ ولم يكن غرضها سوى الضحك والمزاح
فكان من الامر ما كان

ولما خرج السر وليم من الخيمة على ما تقدّم عادت الملكة
الى ما كانت عليهِ من الهزل فرجعت الاميرة جوليا الى خيمتها
وبها من الاضطراب وصغر النفس ما لا يوصف فلم تصدق
ان طلع الفجر حتى ارسلت احدى جواريها لترى ما جرى
بالعَلَم فعادت واخبرتها انها لم ترَ عَلَمًا ولا فارسًا . فهرعت
الى خيمة الملكة وجعلت تتضرَّع اليها لتبادر الى خيمة زوجها
وتبذل جهدها في منع نتيجه هزلها . فخافت الملكة من ذلك
وجعلت تلوم جواريها على جاري عادتها وحاولت ان تسكّن
روع الاميرة جوليا وكانت تقول لها اظنُّ ان الفارس نائم
الآن بعد سهر الليل او انهُ خاف من غضب الملك فهرب
بالعَلَم او ان الملك غضب عليهِ وسجنهُ وبعد قليل يسكن

غضبهُ فامضي اليهِ واستعطفهُ . وكانت الاميرة جوليا تبيّن لها فساد هذهِ الاقوال وعاقبة التهامل . وفيما هي تلحّ عليها لتذهب دخلت احدى الجواري وعلامات الخوف الشديد على وجهها فلمَّا رأَتها الاميرة جوليا غابت عن الصواب وصرخت قائلةً بالله عليكِ ايتها الملكة اسرعي حالاً ونجّي هذا الفارس من الموت اذا كان باقياً في قيد الحياة . فقالت الجارية انهُ لم يزل حيّاً ولكن سيقضى عليهِ حالاً وهذا هو امر الملك قالت ذلك وخنقتها العبرات فجعلت تبكي وتتحسّر

فصرخت الملكة بالويل والحرب وجعلت تنذر النذور للقديسين والاولياء وقالت عليَّ برئيس الاساقفة ليمضي ويتشفَّع بهِ عند الملك . وكانت الاميرة جوليا تتضرَّع اليها لتذهب بنفسها الى الملك ووافقها الجواري على ذلك . ولمَّا لم ترَ لها من الذهاب مناصاً امرتهنَّ ان يلبسنها ثيابها فأَلبسنها ثوباً اخضر فلمَّا رأَت نفسها في المرآة انتهرتهنَّ وقالت أَتلبسنني هذا الثوب الذي يكرههُ الملك . البسنني الثوب الازرق وضعنَ عقد الياقوت في عنقي . ففرغ صبر الاميرة جوليا فصرخت قائلةً أَتفكرين بهذه الامور والفارس تحت

سيف الجلّاد . انا أمضي الى الملك بنفسي . انا أمضي لأرى هل يجوز في شرعهِ ان يتخذ اسم نسيبتهِ للهزء والازدراء ويجعل وسيلةً لقتل هذا الفارس والتحافهِ بالعار والاحتقار وجعل شرف انكلترا أضحوكةً عند الكبار والصغار قالت ذلك وخرجت من الخيمة فنادت الملكة اوقفنها أوقفنها فركض الجواري وراءها وأوقفنها فقالت لها الملكة انا اذهب وأفعل لكِ كل ما تريدين . ثم سارت هي وجواريها والاميرة جوليا معها وسار حولهنَّ فرقة من الحرس الملكيّ وأسرعنَ السير على قدر طاقتهنَّ

الفصل السابع عشر

وللمرء أيّامٌ تمرُّ وقد دعَتْ حبالُ المنايا للفتى كلَّ مرصدِ
فمَنْ لم يمُتْ في اليوم لا بدَّ انهُ سيعلقهُ حبلُ المنيّةِ في غدِ

لم تصل الملكة برنغاريا الى خيمة زوجها حتى سمعتهُ يقول لأرل نغيل قُلْ لها ان تنتظر قليلاً فالتفتت الى الاميرة جوليا وقالت لها اسمعي ألم اقل لكِ ان الملك لا يرحّب بنا الآن . وحينئذٍ سمعنَ الملك يقول لواحد اذهب حالاً ولك

عشرة دنانير اذا قطعتَ رأْسهُ بضربة واحدة ولكن راقب وجههُ وشفتيهِ لترى هل يصفرُّ وجههُ او ترتجف شفتاهُ فانني احبُّ ان اعرف كيف يموت الابطال . فلمَّا سمعت الاميرة جوليا هذا الكلام قالت للملكة اذا كنتِ لا تقدرين ان تدخلي من نفسكِ فانا افتح لكِ الباب وان لم تدخلي انتِ فانا ادخل ثم نادت رئيس الحرس وقالت ان الملكة تريد ان تدخل وترى زوجها . فأَحنى لها الرئيس رأْسهُ وقال يا مولاتي يصعب عليَّ ان اخالف امركِ ولكنَّ الملك مشغول بامرٍ فيهِ موت وحياة . فقالت الاميرة ونحن أَتينا لنتكلَّم معهُ في هذا الامر عينهِ . ثم أَبعدت رئيس الحرس بيمينها ورفعت سجف الخيمة بيسارها وأَومأَت الى الملكة لتدخل . فوقف الرئيس حيران لا يدري ماذا يفعل وكان الملك مضطجعاً في سريرهِ وامامهُ السيَّاف وهو قصير القامـــة غليظ الرقبة مكشوف الذراعَين عليهِ ثوبٌ من جلود الثيران ملطخ بالدماء وبيدهِ سيف طويل يلوح الموت من نصلهِ . فلمَّا دخلت الملكة رآها الملك فأَدار وجههُ عنها مغتاظًا ورفع الدثار حتى غطى كتفيهِ وكان من جلود الاسود . فاضطربت في

امرها ولكن لم يخفَ عليها كيف تسترضي زوجها . وهل يخفى ذلك على امرأةٍ . فأسرعت الى جانب سريرهِ وانطرحت على ركبتيها ورمت الوشاح على كتفيها فبانت غدائرها الذهبيَّة حول وجهٍ كالبدر وقبضت على يدهِ بكلتي يديها واحنت رأسها عليها وجعلت تقبلها وتسكب عليها العبرات

خلَّت الشمسُ برج الليثِ ساجدةً   وزحزحَتْ شفقاً غطَّى سنى قمرِ
وخضَّبت يدهُ من وردِ وجنتها   وامطرَتْ لؤلؤاً من نرجسٍ نضرِ

فقال لها ما معنى هذا العمل يا برنغاريا . فقالت اصرف هذا الرجل (تريد بهِ السيَّاف) من هنا لانني ارتعبت من منظرهِ . فقال لهُ الملك ما يوقفك هنا اذهب حالاً . فقال السيَّاف ماذا يأمر الملك ان نفعل بالجثة . فقال ادفنوها دفناً . فخرج السيَّاف والتفت الملك الى الملكة وقال لها ثمَّ ماذا تطلبين . فلم تفهُ بكلمةٍ

وكان الملك ريكارد من المشهورين بحبّ الجمال المستعبدين لربَّاتهِ فنظر الى زوجتهِ فرأى وجه ملاك منطرحاً على يدهِ فرقَّ لها قلبهُ وايُّ رجلٍ يرى وجهاً جميلاً كوجه برنغاريا منطرحاً على يدهِ يمزج القبلات بالدموع ولا يرقّ

لهُ ولا ينعطف اليهِ فقبَّلها في جبينها وقال لها ماذا تطلبين يا مالكة فوًادي فأَجابتهُ اني اطلب العفو يا مولايَ . فقال عمَّن تطلبين العفو . فقالت اولاً عن تجاسري على الدخول بدون امرك . فقال أتعدّين دخولكِ تجاسرًا أو يحقّ للشمس ان تطلب العفو اذا دخلت اشعّتها منازل الناس . ولكن لم يكن المحضرُ مناسباً لحضوركِ فيهِ ولا كنتُ اريد ان تخاطري بحياتكِ وتدخلي خيمتي وانا مريض . فقالت اراكَ قد شُفيتَ من كرم المولى . فقال نعم قد شُفيتُ وصرتُ قادرًا ان اخطف روح كل مَن لا يقول انكِ اجمل امرأَة في الدنيا . فقالت اذن لا تبخل عليَّ بحياة شخص واحد . فعبس قليلاً ثم قال حياة مَن . فقالت حياة هذا الفارس الاسكتسي التعيس فقال لها البكِ عنهُ يا أمرأَة فلا بدَّ من قتلهِ الآن . فقالت سيدي وحبيبي إنْ هي الاَّ قطعة من الحرير فانا انسج لكَ واحدة غيرها بيدي وارصّعها بكل جوهرة من جواهري وَاغسلها بدموع الشكر لكرمك . فأَوقفها عن الكلام وقال لها انكِ لا تعلمين ما تقولين فان كل جواهرك وكل جواهر المشرق لا تقابل ذرَّةً من العار الذي لحق بشرف انكلترا .

وكل دموع النساء لا تغسل العار الذي لحق بشرف زوجكِ فاذهبي واعرفي قدر نفسكِ فاننا نقضي الآن اعمالاً واجبة لا دخل للنساء فيها · فقالت أسمعتِ يا جوليا ألمْ اقلْ لكِ اننا نهيج غضبهُ

· فتقدمت الاميرة جوليا وقالت انا نسيبتك ايها الملك اتوسَّل اليك ان تصغي الى صوت العدل لا الى صوت الرحمة وصوت العدل تسمعهُ آذان الملوك في كل زمان ومكان

فقام الملك وجلس في سريرهِ وهو يقول ان ابنة عمنا تتكلَّم كما يليق ببنات الملوك وكما يليق بالملوك نجيبها . وكان في منظر الاميرة جوليا من الهيبة والجلال ما يدهش كل من ينظر اليها ولو كان ريكارد قلب الاسد · قال ذلك وتوقَّف عن الكلام رغماً عنهُ . فقالت مولاي ان هذا الفارس الذي انت عازم ان تسفك دمهُ قد حارب حرب الابطال في هذا الجهاد ولم يتغاضَ عن واجباتهِ الاَّ لان شَرَكاً قوياً نُصِبَ لهُ ورسالة مزورةً أُرسلَتْ اليهِ باسم فتاةٍ — ولماذا اخفي اسمها — باسمي انا وايُّ فارس من فرساننا لا يفعل

ما فعل من اجل فتاةٍ في عروقها دم بلنتجنت[1] وان لم يكن فيها شيءٌ تفتخر بهِ غير ذلك

فعضَّ الملك شفتيهِ من شدَّة الغيظ وقال أَورأَيتهِ يا جوليا . فقالت نعم رأَيتهُ ولم آتِ الى هنا لأُبرّر نفسي ولا لأَستذنب غيري . فقال واين رأَيتهِ . فقالت في خيمة جلالة الملكة

فصرخ الملك قائلاً . في خيمة الملكة يا للوقاحة ويا للعار اني قد رأَيت وقاحة هذا الفارس وطموح ابصارهِ الى ما يعلو عنهُ علوًّا كبيرًا فغضضتُ الطرف وقلت هي الشمس فلا تحرمنَّ المخلوقات من نورها . أَفتقابلينهُ في الليل في خيمة الملكة وتجاسرين ان تقدمي ذلك عذرًا لهُ . فوتربة اجدادي لاجعلنَّكِ تندبين هذا الفعل حياتكِ كلها في دير من اديرة الراهبات .

فقالت مولايَ يهونُ علينا ان تصاب جسومنا وتسلم اعراضنا لنا وعقولنا وانا لم يمسَّ شرفي بشيءٍ ومولاتي الملكة قادرة ان تثبت ذلك اذا شاءت . ولكنني قد سبقت فقلت انني لم آتِ لابرّر نفسي ولا لاستذنب غيري وانما اطلب منك

---

(١) اسم عائلة الملك ريكارد .

ان تعامل هذا الفارس بما ستطلب يوماً ما ان تُعامَل بهِ في محكمة العدل الالهي

فقال الملك أهذه جوليا بلنتجنت أهذه جوليا الحكيمة النبيلة او عشيقة تفتدي عشيقها بحياتها

فقالت أتدعوهُ عشيقي نعم يحبني ولكنهُ يحبني حب البشر للآلهة ولا يطمع باكثر . أفيحكَم عليهِ بالموت من اجل ذلك . أهكذا يحكَم على الابطال الامناء - فالتفتت اليها الملكة وتوسَّلت اليها ان تسكت - فقالت جوليا لا اقدر لا اقدر . فان العذراء الطاهرة لا تخاف الاسد الكاسر . لينفذ امرهُ في هذا الفارس فجوليا التي يموت ذلك الفارس من اجلها تعرف كيف تبكيهِ وترثيهِ . نعم ان اقتراني بهِ لم يكن ممكناً ونحن في قيد الحياة لما بيننا من البعد في المراتب ولكن الموت يساوي بين الرفيع والوضيع فاحسبوني من الآن في عداد الاموات

وقبل ان تتم كلامها وقبل ان يجيبها الملك بكلمة دخل راهب من الرهبان الكرمليين وانطرح على ركبتيهِ امام الملك وهو يطلب منهُ ان يوقف الحكم . فاقسم الملك بالسيف والصولجان وقال قد تآمر الانس والجان على تسفيه رأيي فعليَّ ان يبقى هذا

الفارس حيًّا الى الآن. قل لي ماذا تريد ايها الراهب. فقال قد باح لي هذا الفارس بسر خفي لا يمكنني ان ابوح بهِ لانني سمعتهُ منهُ بالاعتراف ولكن اقسم لك باعظم الاقسام انني لو كاشفتك بهذا السر لاضطررت ان تحجب دمهُ

فقال الملك ايها الاب المحترم انا احترم الكنيسة مثلك كما تشهد هذه الاسلحة فاطلعني على هذا السر وانا اتبصر في الامر والّا فلا يمكن ان أُصرَف عن عزمي. فطرح الراهب الرداء عنهُ فظهر من تحتهِ رجل انهكهُ الصوم والتقشُّف وقال قد مضى عليَّ عشرون سنة يا مولاي وانا اعذّب جسدي واقمعهُ في مغاير عين جدي من اجل ذنب واحد فهل اكذب عليك واهلك نفسي او افشي سرَّ الاعتراف وافشاؤُهُ من الكبائر

فقال الملك أَأنت ناسك عين جدي أَأَنت الرجل الذي بعث اليهِ مجمع الامراء بهذا الفارس عن غير علم مني لتخابر صلاح الدين في امر الصلح. ليكن معلومًا عندك وعندهم انني لا اتقيد بقيد الكرمليين وان شفاعتك بهذا الفارس تجبرني على التعجيل في سفك دمهِ

فقال الناسك احذر ايها الملك فانك ستضرم ناراً تودّ لو قطعت يدك ولم تضرمها . احذر ايها الرجل العنيد

فصرخ الملك قائلاً أتشرق الشمس ولا يُقتل مَنْ أُهين بسببهِ شرف انكلترا ليخرج كل احد من هنا والّا فويحق . ولم يتم كلامهُ حتى سمع واحداً يقول "قال كتابكم لا تحلفوا البتة" واذا بالحكيم قد دخل الخيمة وسلَّم وجلس امام الملك فقال لهُ الملك اظنك جئت لترى بما نكافئك

فقال الحكيم قد جئت لاكلمك في امر ذي بال . فقال الملك هذه هي الملكة فانظر اليها لترى من شفى زوجها . فقال الحكيم لا يليق بنا معاشر المشارقة ان ننظر الى الحصينات . فقال الملك لتنصرف الملكة اذاً ولتنصرف ابنة عمنا ايضاً وانا قد امرت ان يؤخَّر الحكم الى الظهر . فخرجت الملكة والاميرة والجواري كانهنَّ مسوقات سوقاً واتين الى خيمة الملكة وكانت اشدهنَّ جزعاً واكثرهنَّ بكاء واما الاميرة جوليا فلم تسكب دمعة ولم تفهْ بكلمة . فقالت احدى الجواري للاخرى قد ظلمناها بقولنا انها محبة فليس في الامر اكثر من انها اغتاظت لان هذه المصيبة اصابته بسببها . فقالت لها الاخرى اسكتي

فانها من آل بلتجنت الانوفين الذين يتجرَّعون الموت ولا يشكون ضيماً ولكن الويل لنا فاننا قد اضرمنا هذه النار بقلة عقلنا

الفصل الثامن عشر

اين الرواية بل اين النجومُ وما   صاغوهُ من زُخرفٍ فيها ومن كَذِبِ
تخرُّصاً واحاديثاً ملفقةً   ليست بنبعٍ اذا عُدَّت ولا غَرَبِ

لما خرجت الملكة وجواريها من خيمة الملك تبعهنَّ الناسك كما يتبع الظل الشمس والتفت الى الملك قبل ان خرج من باب الخيمة وقال لهُ ويل لمن يرفض مشورة الكنيسة ليصغي الى مشورة اعدائهِ فسوف تجني ما جنت يدك

فقال الملك ليكن كما قلت. ثم التفت الى الحكيم وقال لهُ أيتجاسر الدراويش على ملوككم كما يتجاسر هؤلاء النسَّاك علينا. فقال الحكيم الدراويش إمَّا عقلاء وإمَّا مجانين فالعقلاء يعرفون قدر الملوك والمجانين لا عتب عليهم ولا ملام . فقال الملك اظن ان صاحبنا من النوع الاخير ولكن ما لنا ولهُ هات قُلْ لي ما هي طلبتك. فقال الحكيم ألا تذكر اني نجَّيتُ نفسك من الموت فقال واظنك اتيت لتطلب نجاة نفسٍ

بنفس فقال نعم اتيتُ لاطلب حجب دم هذا الفارس الذي لم يغوَ الَّا كما اغوي جدُّنا آدم عليهِ السلام . فقال الملك أَوَلا تذكر ان آدم مات من اجل غوايتهِ قال ذلك وهو عابس ثم اظهر البشاشة وقال يا للعجب ماذا جرى حتى اتفقت قوَّات الارض وجاءتني تباعًا تطلب نجاة هذا الفارس ثم ضحك حتى استلقى على ظهرهِ وكانت سوْرة الغيظ قد ابتدأَت تنكسر من نفسهِ فقال للحكيم اني اهبك مهما شئت من الهبات واما هذا الرجل فقد حكم عليهِ بالموت ولن يرُدَّ الحكم . فقال الحكيم ليس لي بالهبات من أَرب ولا غرض لي الَّا بهذا الفارس فقال الملك وما غرضك بهِ . فقال ان الدواء الذي شفاك هو طلسم نطيحة بالصوم ومراقبة الكواكب ولا بدَّ من ان تشفي بهِ اثني عشر شخصًا على الاقل كل شهر والَّا زالت منهُ قوَّة الشفاء وتعرَّض الطبيب والمريض الاخير الذي داواهُ بهِ للموت في مدَّة سنة : وانا قد شفيتُ بهِ احد عشر شخصًا هذا الشهر ونجيتهم من الموت ولا بدَّ لي من نجاة الشخص الثاني عشر والَّا بطل فعلهُ وتعرَّضتُ انا وانت للموت في سنة من الزمان

فقال الملك اخرج الى المعسكر ترَ مئات من المرضى فاشفِ من شئت منهم . ومع هذا فلا ارى كيف ان نجاة انسان من القتل تعدُّ شفاء وتكمل قصتك الملفقة . فقال أتعلم كيف ان جرعة من الماء البارد شفتك من الحُمى المحرقة فان كنت لا تعلم ذلك فلا تنفِ اموراً لا تعلمها ولا تفهمها ولا تعرّض حياتك وحياتي للخطر . فاجابهُ الملك قائلاً لكَ ان تراقب النجوم والافلاك وتلبس اقوالك بما شئت من التوريات والاستعارات امَّا انا فلا اخاف من النجوم ولا ارهب من الطلاسم

والعلمُ في شهبِ الارماحِ لامعةً   بينَ الخميسين لا في السبعةِ الشُّهبِ

كما قال شاعركم . فقال الحكيم اني لاعجب ايها الملك كيف تنكر فعل هذا الطلسم بل كيف تضنُّ بهِ على المرضى والمشرفين على الموت أوَ يُصَدَّق ان الملك الذي يذبح الناس بالالوف لا يستطيع ان يحجب دمَ انسان واحد فكأنَّ الله خلقك نقمةً للعباد لا رحمةً لهم .

فاغتاظ الملك من هذا الخطاب وقال للحكيم أنَّا اتخذناك طبيباً لنا لا مشيراً علينا فلا تتعرَّض لما لا يعنيك . فرفع الحكيم صوتهُ وقال أَبهذا الجزاء يجازي ملوك الافرنج من

تنجي حياتهم من الموت . فاعلم ايها الملك انني ساذيع اسمك في المشرق والمغرب. في قصور الملوك واكواخ الصعاليك وكل مكان يتغنى فيه الناس بمدح الابطال والاقيال ولابيّن لاهل الخافقين انكارك للجميل ومجازاتك الاحسان بالسيئات .

فلمَّا سمع الملك ريكارد هذا الخطاب طار عقلهُ وقال لهُ ألي تقول هذا الكلام وقام اليهِ وهمَّ بضربهِ . فقال لهُ الحكيم اضرب لكي يتزكَّى وصفي لك بفعلك القبيح . فأطرق الملك وجعل يتمشَّى في خيمتهِ ذهابًا وإيابًا وهو يتنفَّس الصعداء ثم التفت الى الحكيم وقال لهُ قد اخترتَ جزاءك فاذهب وخذْ هذا الاسكتسي فقد وهبتك اياهُ وليتك طلبتَ تاجي ولم تطلبهُ . ثم اخذ قلمًا وقرطاسًا وكتب سطرين وسلَّمها لهُ وقال خذْهُ وليكن عبدًا لك ولكن أيَّاكَ وان يرى وجهي . فقال الحكيم سمعًا وطاعةً وهمَّ بالخروج فقال لهُ الملك هل لك حاجة أُخرى فتقضيها فقال اطال الله عمر الملك فقد وفاني واوفى ثم خرج فنظر اليهِ الملك وهو خارج وقال كيف نجا هذا الفارس من العقاب الذي استحقَّهُ ولكن لا ندامة في ذلك لانهُ شجاع . ثم نادى البارون ده فو فدخل

ودخل معهُ الناسك المتقدم ذكرهُ . فالتفت الملك الى البارون وقال لهُ اذهب حالاً الى خيمة هذا الذي يسمّونهُ دوق النمسا وادخل عليهِ وهو في بلاطهِ وبين بطانتهِ واظهر لهُ ما شئت من الازدراء وقل لهُ انهُ هو سرق العَلَم بيدهِ او بامرهِ وعليهِ ان يردَّهُ الى مكانهِ في ساعةٍ من الزمان ويكون حاضراً وقت نصبهِ هو وكل خواصهِ مكشوفي الرؤُوس وليس عليهم شيءٌ من حلل الشرف وعليهِ ان يركز على الجانب الواحد من العَلَم عَلَم النمسا منكوساً مهاناً وعلى الجانب الآخر رمحاً عليهِ رأس المشير الاقرب اليهِ او الذي ساعدهُ في هذه الفعلة الشنعاء وقل لهُ انهُ اذا فعل كل ذلك ولم يخلَّ بشيءٍ منهُ قط سامحناهُ عمَّا بقي من ذنوبهِ

فقال البارون ده فو وماذا افعل اذا أنكر الدوق انهُ سرق العَلَم او انهُ يعلم مَن سرقهُ . فأجابهُ الملك قُل لهُ اننا نثبت ذلك في ميدان النزال ونفوّض اليهِ ان يختار المكان والزمان والاسلحة . ولكن قبل ان يخرج ده فو اعترضهُ الناسك وقال انني باسم الله تعالى وباسم الحبر الاقدس رئيس الكنيسة على الارض أُحرّمُ هذا العمل ولا اجيز

لاميرَين من امراء النصارى قد تعاهدا على المحبّة والاخاء ان يتقاضيا الى السيف . فارجع ايها الملك عن عزمك واعلم ان حياتك في خطر وقد دنا الموت منك وبعد الموت الدينونة . فقال لهُ الملك ايها الأب المحترم انتم معشر خدمة الدين تتغاظون اذا تعدّينا على حقوقكم الدينيّة فاعطوا ما لقيصر لقيصر ولا تتعدّوا على حقوقنا . فقال الناسك مَن انا حتى اتعدّى على حقوق الملوك ولكنني اتوسّل اليك على ركبتيّ ان ترحم بلادك وترحم النصرانيّة كلها . قال ذلك وركع امامهُ على ركبتَيهِ . فأنهضهُ الملك بيدَيهِ وقال لهُ لا يليق ان تركع امام المخلوق بهاتَين الركبتَين اللّتَين تركع بهما امام الخالق . ومَن هو هذا الدوق حتى اخاف على بلادي من اجلهِ . فقال الناسك نظرتُ في ابراج السماء ورقبتُ مطالع الكواكب فعلمتُ منها ان منيّتك قد حانت وان العدوّ ظمآن لشرب دمك

فتأفّف الملك من هذا الكلام وقال تخرُّصاً واحاديثاً ملفقةً وخرافات يعتقد بهِ عبدة الاصنام وما عهدي بالنصارى يرعونها سمعاً فما اظنّك الّا مهوِّلاً . فقال الناسك ما انا من

اهل التهويل وقد أبقى لي الله عقلاً لاخدم بهِ هذا الجهاد فاسألني عن امرٍ ترني من احكم الحكماء واسألني عن غيرهِ ترني كأحد المجانين

فتأمل الملك في الامر قليلاً ثم قال لا أرب لي بايقاع الخلاف بين هذه الجنود ولكن بمَ يعوّضون عمّا وقع بي من الاهانة · فأجابهُ الناسك قائلاً هذا الذي اتيت لاجلهِ مرسلاً من مجمع الامراء الذي التأم الآن بامر ملك فرنسا فقد اتفقت آراؤهم على ردّ علَم انكلترا الى الاكمة التي كان عليها وعقاب كل مَن اشترك في سرقتهِ واطعام لحمهِ لغربان السماء ووحوش البرّية

فقال الملك وماذا يفعلون بدوق النمسا وهو المتّهم بهذا الفعل · فأجاب الناسك قد اجمعوا على ان يبرّر نفسهُ بما يرتئيهِ بطريرك اورشليم . فتهلّل وجه ريكارد وقال هذا حسبي ايها الاب المحترم ثم جعل يتهكّم على الدوق فانتهرهُ الناسك وقال لهُ لا يليق بالملوك ان يغتاب بعضهم بعضاً واني لآسف جداً ان سيف النصرانيّة وعزّها المشهود لهُ بالحكمة والدراية وهو في ساعة الرضى يصير كالاسد الكاسر

في ساعة الغيظ . الله يعلم ضعف البشر وهو راضٍ عنك وقد أجّل موتك الى حين ولكنّك ستموت قتلاً وتذهب بلا عقب ولا يندبك احد من شعبك لانّك افنيتهم بالحروب ولم تهتمّ براحتهم ورفاهتهم

فقال ريكارد ربما اموت بلا عقب ولكن لا اموت بلا شهرة ولا بلا زوجة تبلّ تراب قبري بالدموع وهذا حسبي من الدنيا وبهِ امتاز عليكَ . فتأوّه الناسك وقال هل تخفى عليَّ محبّة الشهرة ولذّة الحبّ . إعلم ايها الملك اني لست دونك حسباً ونسباً فاني انا ألبرك مرتمار سليل لوزينيان وكدفراي[1] . فقال ريكارد أأنتَ ألبرك مرتمار الذي ذاعت شهرتهُ في الاقطار فكيف سقطتَ من اوج مجدك واحتجبتَ عن الابصار . فقال الناسك انا هو ذلك الكوكب الساقط وسأُميط لك الستار عن ماضي حياتي لعلّي انزع منك هذا العتوّ واجعلك تتواضع امام الملك وكنيستك . انني كنت شريف النسب قوي الذراع سديد الرأي وكان اشرف فتيات هذه البلاد واعلاهنّ نسباً يتسابقنَ الى ضفر اكاليل

(١) من ملوك الصليبيين الذين تملكوا على القدس

الفخار لرأسي ولكنني احببتُ فتاةً فقيرةً لا حَسَب لها ولا نَسَب فلمّا علم ابوها بذلك لم يرَ لها ملجأً غير الدير فربطها بنذور الرهبنة وكنت غائبًا في احدى الغارات فرجعتُ ومعي غنائم لا تُقدَّر ولكنني لم اجد حبيبتي حيث تركتها فخلعتُ عدَّة الحرب والجلاد ولبستُ ثوب الرهبنة . ولم يَطُل عليَّ الامر حتى ارتفع مقامي بين الرهبان واشتهرتُ بالفضائل كما اشتهرت بالبسالة . ثم عُيِّنتُ معرّفًا لدير من اديرة الراهبات فرأيت حبيبتي بينهنَّ ووسوس اليَّ الشيطان فجئتُ امرًا فريًا . فقتلَتْ نفسها لتنجو من العار فدفنتُها في الكهف الذي انا فيهِ . ومن ثمَّ الى الآن اقمع جسدي واعذّبهُ . ولم يبقَ لي الله من العقل الّا ما اميّز بهِ تعاستي وشقاء حالي واحضُّ بهِ المسيحيين على الجهاد . فلا تشفق عليَّ ولا ترثِ لحالي بل اتَّعِظ بامري واعتبر بمثالي فانك الآن في اوج المجد فاطرحْ عنك كبرياءك وترَفك وحبكَ لسفك الدماء والّا هبطتَ الى حضيض الذلّ

فاغتاظ ريكارد من هذا الكلام ولكنهُ تجلَّد وحوّلهُ الى المزاح وقال قد طرحتُ كبريائي ووهبتها لرؤساء الكنيسة

وترفي ووهيبة لرهبانها وحبي لسفك الدماء ووهبة للهيكليين

فقال الناسك اني اطلب من الله ان يفسح لك في الأجل سنةً أخرى لترى فساد ظنونك وتتضع امام كنيسته . ثم صرخ صرخةً شديدةً وخرج من الخيمة . واقام ريكارد بعد خروجه يتأمل في كلامه وفي ما أنبأهُ بهِ من دنوّ أجلهِ وموته بلا عقب ثم قال في نفسهِ ان هذا الناسك يراقب النجوم ويعرف حوادث الغيب والاستقبال فليتني سألتهُ عن سارق العَلَم لعلهُ يعرف مَن هو . وحينئذٍ دخل البارون ده فو وقال ان رئيس اساقفة صور بالباب وهو يطلب الدخول على الملك ليكلمهُ في قضيةٍ سرّيّة

الفصل التاسع عشر

وحسنُ ظنّك بالايام معجزةٌ   فظنّ شرًّا وكُن منها على وَجَلِ
وشانُ صدقكَ عندَ الناسِ كذبهمُ   وهل يُطابقُ معوجٌ بمعتدلِ
لن كانَ ينجعُ شيءٌ في ثباتهم   على العهودِ فسبقُ السيفِ للعذلِ

اختير رئيس اساقفة صور من بين كل الرؤساء للدخول على الملك ريكارد لانهُ كان رجلاً جليلاً مهيبًا

والمسألة ذات بال لا يجسر احد ان يكلّم ريكارد فيها غيره. قدخل عليهِ واخبره الاخبار التي قطعت آماله من استرجاع بيت المقدس بالسيف ومما يناله من المجد والشهرة. وبيّن له ان صلاح الدين جمع جيوشًا لا يحصيها العدّ وان ملوك النصارى قد فترت هممهم وضعفت عزيمتهم وفي مقدمتهم فيليب ملك فرنسا الذي عزم ان يرجع الى بلادهِ حالما يرى ملك الانكليز قد تعافى واقتدى بهِ ارل شمبانيا ودوق النمسا. فلا يبقى في دار الحرب الاّ الملك ريكارد وبعض المتطوّعة ويبقى ايضًا مركيز منسرّات ورئيس الهيكليين وكلٌّ منهما يؤثر نفسهُ ويودُّ ان يبقى في البلاد وحده. فاغتاظ ريكارد في اول الامر على جاري عادتهِ ولكنهُ رأى صدق كلام الاسقف واخلاص نيتهِ. ولم يخفَ عليهِ الاسقف ان حدّتهُ (اي حدّة ريكارد) كانت من اقوى الاسباب لتفريق كلمة الصليبيين. فلمّا سمع ريكارد هذا الكلام لاحت على وجههِ لوائح الكدر وانكساف البال وقال لرئيس الاساقفة انني لا انكر ايها الاب المحترم حدّة طبعي ولكن أُحرَم من الفوز في هذه الحرب المجيدة من اجل حدّة انسان واحد. لا وتربة اجدادي

فلا رفعنَّ الصليب فوق اسوار اورشليم او ترفعوهُ على قبري

فقال الاسقف يمكنك ان ترفعهُ فوق اسوار اورشليم ولا تسفك نقطة من دمائنا . فان صلاح الدين قد وعد ان يسلمنا مدن الساحل ويبيح للجميع زيارة بيت المقدس ويسمح لنا ببناء حصن متين فيهِ ويلقّبك حامية اورشليم

فاندهش ريكارد من هذا الكلام وقال أيلقبني حامية اورشليم — هذا هو الفوز بعينهِ ولكن هل تسمّيهِ فوزًا اذا نلناهُ مكرَهين وكلمتنا متفرّقة . وهل يبقى صلاح الدين سلطانًا على هذه البلاد . فقال الاسقف نعم يبقى قسيماً لك في السلطنة اذا شئتَ ان تصاهرهُ . فقال ريكارد بمَنْ اصاهرهُ — أأصاهرهُ بجوليا بلنتجنت . أرأيتُ ذلك في حلمٍ ام اخبرني بهِ احد . فقال الاسقف اظنُّ ان الناسك اخبرك بهِ لانهُ لما رأى تفرّق كلمتنا حاول بكل جهدهِ ان يصالحنا مع صلاح الدين ويجعل شروط الصلح مناسبة لنا

فقال ريكارد أيحلُّ لنا ان نزوّج نسيبتنا برجل من غير ملتنا . فقال الاسقف لا يكون ذلك الّا بسماح من الحبر الاعظم . ثم اخذ يخبرهُ عن مصاهرة النصارى والمسلمين في بلاد الاندلس

وعن الفوائد الجمة التي تصدر عن هذه المصاهرة . وجعل يطنب في مدح صلاح الدين. فقال ريكارد لو تكلم احد قبل الآن بهذا الكلام لقطعت رأسهُ في الحال اما الآن فلا ارى سبباً لامتناعي عن مصاهرة ملك عادل شجاع كريم يكرم عدوهُ اذا كان باسلاً كما يكرم صديقهُ على حين ارى رؤساء النصارى يلتمسون الاسباب لهجر حلفائهم. فاسمح لي ايها الاب المحترم ان احاول مرةً أخرى لمّ شعث هولاء الروساء وجمع كلمتهم فان نجحتُ نجحتُ والاّ عدنا الى هذا الحديث فانني لا احب هذه المصاهرة ولا اكرهها . والآن هيا بنا الى مجمع الامراء فترى اتضاع ريكارد ولين جانبهِ . قال ذلك ونادى خدمهُ ليعينوهُ على لبس ثيابهِ ثم مضى مع رئيس الاساقفة الى نادي الامراء فوجدهم مجتمعين ومنتظرين قدومهُ وكانوا قد اغتنموا فرصة غيابهِ وندّدوا بعيوبهِ كلها وبالغوا فيها ما امكنهم واتفقوا على ان لا يحتفلوا بهِ ولا يقوموا لهُ ولكن لم تطأْ رجلهُ باب الخيمة التي كانوا مجتمعين فيها حتى نهض ملك فرنسا ودوق النمسا اجلالاً لهُ ونهض معهم جميع الحضور وصرخوا ليحيَ ملك انكلترا ليحيَ قلب الاسد . فتهلل وجههُ وحيّاهم بالسلام وقال

ايها الامراء والرؤساء اتوسل اليكم ان تسمحوا لي ببضع دقائق اكلمكم فيها بما يخص شخصي الحقير. ولما قال ذلك سكت الجميع سكوتاً تاماً فقال

ايها الامراء والرؤساء الكرام انتم تعلمون ان ريكارد الواقف امامكم رجل حرب حادّ الطباع يدهُ تسبق لسانهُ ولسانهُ لا يعرف التبجيل فلا تبطلوا هذا الجهاد المجيد بسبب ما ترونهُ منهُ من الخفّة والنزق ولا تتركوا هذا الشرف الاثيل بسبب ما ترونهُ فيهِ من الخطإِ وحدّة الطباع . وان كنتُ قد اسأْتُ الى احد منكم فاطلب منهُ المعذرة والصفح . هل اسأْتُ اليك ايها الملك فيليب قال ذلك ومدّ يدهُ لملك فرنسا فاجابهُ كلاَّ ايها الاخ فانا لم اعزم ان اترك هذا الجهاد الآن الا ان احوال مملكتي تضطرني الى ذلك . ثم مدَّ لهُ يدهُ وتصافحا . فتقدّم ريكارد نحو دوق النمسا وقال انت حاقد عليَّ ايها الدوق وانا حاقد عليك فلنرفع الاحقاد من بيننا ونتصالح ونتصافى ونكن يدًا واحدة في هذا الجهاد المجيد وان كنتَ قد اخذتَ عليَّ فردهُ الى مكانهِ وانا اعتذر اليك عمَّا صدر مني في ساعة غيظي . فوقف الدوق امامهُ صامتاً مطرقاً الى الارض كأنهُ

لايستطيع الكلام وحينئذٍ تقدم رئيس اساقفة اورشليم وقال ان الدوق قد انكر هذه التهمة باعظم الاقسام . فقال ريكارد اذًا قد اخطأنا باتهامهِ ولذلك نلتمس منهُ الصفح قال ذلك ومدَّ لهُ يدهُ لكي يصافحهُ فلم يمدَّ الدوق يدهُ . فقال ريكارد أيبخل علينا الدوق بالمصافحة في هذا النادي كما بخل علينا بالمناجزة في ميدان النزال ولكننا نغضُّ الطرف عن ذلك ونعدُّ هذه الاهانة جزاء لما بدا منا في حقهِ ونحن في حدَّة الغيظ . ثم حوَّل وجههُ عنهُ والتفت الى باقي الحضور ونادى ارل شمبانيا ومركيز منسرات ورئيس الهيكليين وقال هل اسأتُ اليكم بشيء فاكفّر عن ذنبي

فقام مركيز منسرَّات وقال دعواي عليك انك تحرمنا نحن اخوانك كل ما نستحق من الشهرة . ثم وقف رئيس الهيكليين وقال ان دعواي اعظم من دعوى مركيز منسرات وقد تقولون انهُ لايليق بي ان اتقدم غيري في هذا المحفل الحافل بالامراء والروساء وابيّن ما لنا من الشكاوي على هذا الملك ولكن قد اشتدت الازمة فيجب ان نبيّن لهُ في حضرتهِ ما نقولهُ في غيبتهِ . اننا نُعجب ببسالة ملك انكلترا ونباهي بها ولكننا

نستاء جدًّا حينما نراهُ يغتنم كل فرصة لاظهار سيادتهِ علينا كأننا من بعض اتباعهِ . فنحن من تلقاء انفسنا نعترف لهُ بالبسالة والغيرة والثروة والقوة ونخضع لهُ في امور كثيرة ولكنهُ اذا اضطرنا الى ذلك اضطرارًا انحططنا في عيون رجالنا من رتبة المحالفين لهذا الملك الى رتبة التابعين الخاضعين لهُ وزالت سلطتنا عنهم وثُلّت عروشنا . وقد طلب منّا ان نصدقهُ الخبر فلا اظنهُ يستاء اذا قام واحدٌ مثلي قد ترك امجاد الدنيا وكل سلطة زمنية الّا في ما يعود الى رفع شأن هيكل الله واجابهُ الى ما طلب لا سيّما وان ما تكلمت بهِ يصدّق لهُ كل احد من هؤلاء الحضور

فثار الدم الى رأس الملك ريكارد حينما سمع الرئيس يتكلّم بهذا الكلام فاحمرّت وجنتاهُ وتقطّبَ حاجباهُ وتطاير الشرر من عينيهِ ولا سيّما حينما رأى الجميع يظهرون علامات الاستحسان فقال في نفسهِ اذا اجبتهُ جواب الغيظ والانتقام كما يستحق خطابهُ انلتهُ مبتغاهُ فاثبتُ عليَّ دعواهُ فتربّصَ قليلًا حتى هدأ روعهُ ثُمَّ رفع يدهُ وقال

أحقيق ان اخواننا مغتاظون منا لاجل ما يرونهُ فينا من

حدة الطبع ومؤاخذونا بهفواتنا التي تصدر منّا امّا لشدّة
غيرتنا وامّا لخشونة طباعنا. فلم يخطر على بالي ان هذه الهفوات
التي تصدر مني عن غير قصدٍ رديء تقع هذا الموقع في عيون
حلفائي فيرتدّون عن هذا الجهاد المجيد بسببي ويرجعون عن
اورشليم بعد ان فتحت سيوفهم الطريق اليها . بل كنت واثقاً
ان حسناتي تزيد على سيئاتي لاني ان كنتُ اول مَنْ يخرج الى
القتال فانا آخر مَنْ يرجع عنهُ وان كنتُ اهتم برفع علَمي على الاماكن
التي نتغلّب عليها فانا اترك الغنائم كلها لغيري . وان كنتُ
اتشبّث برأيي في اجراء امر من الامور فانا اوّل مَنْ يجريهِ بدمهِ
ودم رجالهِ . وان كنتُ آمُرُ جنود غيري عند الضرورة كما
آمُرُ جنودي فانا اعاملهم كما اعامل جنودي حينما اقسم عليهم
الاطعمة والادوية التي لا يقدر رؤساؤهم ان يبتاعوها لهم. واني
لأَخجلُ من تذكيركم بهذه الامور ولكنّ الشيء بالشيء يُذكَر
فلننسَ الماضي ونهتمَّ بالاستقبال فسأردع نفسي وأُخمد عنفواني
حتى لا اكون عثرة في هذا الطريق المجيد الذي يجبركم دينكم
وشرفكم ان تسيروا فيهِ . فخيرٌ لي ان اموت موتاً من ان تكون
هفواتي وسقطاتي سبباً لحل هذا الارتباط المجيد وتفريق

هؤلاء الامراء العظام . والله يشهد اني عن طيب نفس اتنازل
عن كل حقوقي بل عن قيادة رجالي ونخضع جميعًا لامر مَنْ
تعيّنونهُ قائدًا علينا . وان كنتم قد مللتم حمل السلاح وسئمت
نفوسكم من تواصل الحروب فابقوا معي عشرة آلاف من
جنودكم ومتى تغلّبنا على مدينة صهيون لا نكتب على بابها اسم
ريكارد بل اسماء الامراء الذين ابقوا جنودهم معهُ

فلم يُتم كلامهُ حتى دبّت الحميّة في نفوس الحاضرين
وتصوّروا الغرض الذي جاءوا لاجلهِ فصرخوا قائلين هيَّا
بنا قلبَ الاسد لا يقودنا غيرك في هذا الجهاد هيّا بنا الى
اورشليم هيّا بنا الى اورشليم هذه هي مشيئة الله . وامتدّ النداء
الى الحرس ومنهم الى الجنود وانتشر في كل المحلّة فلم تكن تسمع
الاّ كلمة هيّا بنا الى اورشليم هذه مشيئة الله . ولم يعد احد يتكلم
في مجمع الامراء الاّ فيما يتعلق بالحرب والزحف على اورشليم
حالما تنتهي الهدنة . والمخالفون لذلك لم يجسروا ان يقولوا
الخلاف . ثم انفضّ المحفل على ان يستعدوا للحرب

وخرج مركيز منسرّات ورئيس الهيكليين ومشيا معًا
فقال المركيز طالما قلتُ لك ان أشراكك يقطعها ريكارد

كأنها خيوط العنكبوت . انظر كيف ينقاد اليه هؤلاء
المجانين ويتقلّبون مع الاهواء كأنّهم ريشة بمهبّ الرياح .
فقال المركيز نعم ولكنّ الريح تهجع فيقف الريش ولا يتحرّك .
فقال الرئيس وهبْ انهم انحلّوا من الآن فالارجح ان ريكارد
يصير ملكًا على القدس ويتهادن مع صلاح الدين على
الشروط التي يريدها فأجابهُ المركيز أَتظن ان ريكارد
يصاهر صلاح الدين ذلك محال . ولذلك سعيت فيهِ
لاغاظة الفريقين لان اخذ ريكارد للبلاد بالسلم يضرُّ بنا
مثل اخذهِ لها بالسيف. فقال الرئيس لم تُصب المحزّ على ما
فهمتُ من رئيس الاساقفة لان ريكارد ميّال الى المصاهرة
وكذا سرقة العَلَم لم تجدِ نفعًا فان كانت هذه جعبة حيَلك فقد
فرغت . ولكن أتعرف احدًا من الخوارج فقال كلّا ولكنني
اعرف انهم من الغلاة في الاباحيَّة . فقال الرئيس انا اعرف
واحدًا منهم قد نذر ان يريح الدنيا من هذا الملك وهو الآن
في قبضة يدي . فقال المركيز نعم نعم والخطبُ جسيم ولكن
للضرورة احكام . فقال الرئيس قد افشيتُ لك هذا السرّ
لتكون على حذرٍ لان هؤلاء الانكليز سيهيجون ويموجون

الفصل العشرون

كم سمعنا بل رأينا اسدًا   صادهُ طرفُ المهى المكحلُ .

لمَّا رأى ريكارد انهُ نال بغيتهُ وألَّف بين قلوب الصليبيين حتى وطَّدوا عزائمهم على مداومة القتال عزم ان يصلح ما وقع في بيتهِ من الخلل ويستقصي اخبار علَمهِ المفقود فارسل البارون ده فو ليحضر لهُ السيّدة كالستا وهي الاولى بين نساء الملكة فلمَّا بلغ خيمة الملكة واخبرها بامر الملك اضطربت وقالت للملكة ماذا اقول لهُ يا مولاتي . فقال لها البارون لا تخافي ايتها السيدة لان الملك قد حجب دم الفارس ووهبهُ للحكيم فلا يمكن ان يعامل السيدات بالقسوة . واما الملكة فقالت لها اخترعي لهُ قصة من عند نفسكِ ولا تخبريه بشيء ممَّا جرى فاعترضتها الاميرة جوليا وقالت قصّي عليهِ القصة كما جرت تمامًا والَّا قصصتها انا عليهِ . فقال البارون العفو منكِ ايتها الملكة انا ارى أن الاميرة جوليا مصيبة في ما قالت فان الملك وإن صدَّق كلَّ ما تقولينهُ انتِ لهُ لا يصدّق كل ما يقولهُ غيركِ . فقالت السيدة كالستا قد أصاب

البارون فاني لو قدرت على تلفيق القصّة لما تجاسرت ان اقصها عليهِ . ثم ذهبتْ مع البارون واخبرت الملك بكل ما جرى والقت اللوم على الملكة . وكانت سوْرة الغضب قد زالت من رأس ريكارد كما تقدم فقال لها اذهبي وقولي لمولاتكِ انني سازورها بعد قليل . فعادت الى الملكة وقالت لها ان الملك سيتظاهر بالغيظ في اول الامر حتى يراكِ تخضعين بين يديهِ وتطلبين السماح وحينئذٍ يسامحنا كلنا . فقالت لها الملكة كم ظبيةٍ تنجو وصيادٍ يقع فسيجد ريكارد غير ما ينتظر ثم لبست افخر حللها وجلست تنتظرهُ فأتى وفي نيتهِ انهُ داخل على قوم مذنبين ليؤدبهم او ليسمع استرحامهم فاذا الملكة قد استقبلتهُ باللوم والعتاب وقالت لهُ انها لم تأمر القزم ليأتي بالفارس الى خيمتها ولا حسبت انهُ يحدث شيء مما حدث . ثم جعلت تعنفهُ لانهُ بخل عليها بحياة انسان واحد استحق العقاب بسببها وكانت تبكي وتسكب العبرات وتقول لهُ لو بقيت على عزمك وقتلت هذا الفارس لتنغصتَ عيشي حياتي بطولها وبقي خيالهُ يترصدني في منامي وقيامي فلا افهم كيف تدعي بمحبتي ولا تعفو عن رجل واحد يورثني عتابهُ

بالتعاسة والشقاء كل ايامي . وكانت تتكلم وتبكي من كبد حرَّى . فاحتار الملك وحاول ان يقنعها بالادلة فلم يجد منها الا اللوم والتعنيف فدارت الدائرة عليه واضطرَّ ان يدافع عن نفسه ويطيب خاطرها بقوله ان الفارس لم يزل حياً وانهُ وهبهُ للطبيب العربي فهو عندهُ بأمن من المرض ايضاً . ولما قال لها ذلك زاد بكاؤها ونحيبها وقالت لهُ انك اكرمت هذا الطبيب وهو من اعدائنا اكثر مما اكرمتني وانا زوجتك . فقال لها اسمعي يا برنغاريا ان هذا الطبيب قد نجاني من الموت فان كان لحياتي قيمة عندكِ فلا تستعظمي عليه هذه الهبة التي لم يقبل سواها ولما قال ذلك وجدت انها بلغت غايتها وان الزيادة تفريط فقالت احسنتَ يا حبيبي . فاصطلحا والقيا اللوم كلهُ على القزم فنفياهُ من بلاطهما واجمع رأيهما على اهدائهِ هو وزوجتهُ الى السلطان صلاح الدين مع الهدية التي كان ريكارد عازماً على ارسالها لهُ لنوالهِ الشفاء عن يد طبيبهِ

وبقي على ريكارد ان يقابل الاميرة جوليا في ذلك اليوم فاستعدَّ لتعنيفها الشديد ولكنهُ لم يخفهُ كما خاف تعنيف زوجتهِ

فدخل خيمتها وكانت بجانب خيمة الملكة وجلس بجانبها ثم قال ان ابنة عمنا جوليا غاضبة علينا ولا عجب فنحن لا ننكر اننا انقدنا كرهاً عنّا الى اتهامها بامر مخالف لما نعهدهُ فيها. ولكننا ما دمنا في هذه الدنيا فنحن عرضة للخطإ أفلا تسامحين نسيبكِ ريكارد على ما فرط منهُ في حدَّة غيظهِ . فقالت مَنْ لايسامح ريكارد اذا كان الملك يسامحهُ . فقال لها طيبي نفساً وقرّي عيناً وانزعي هذا البرقع الاسود فقد بلغكِ انهُ لا داعي لحزنكِ فعلى مَ تلبسين ثوب الحداد قالت اني حزينة على شرف بلنتجنت الذي زال وعلى المجد الذي زايل بيت ابي. فعبس وجعل يردد هذه الكلمات وهي الشرف الذي زال المجد الذي زايل بيت ابي ثم قال اخبريني يا ابنة العم بمَ اخطأتُ . فقالت ان ابن بلنتجنت اما ان يعاقب او يسامح ولا يليق بهِ ان يستعبد رجلاً مسيحياً حرًّا وفارساً شجاعاً باسلاً ويهبهُ لاعدائهِ عبداً فلو قتلتهُ لكان قتلهُ قساوة ولكن عليهِ صورة العدل اما استعبادهُ على هذه الصورة فهو الظلم بعينهِ

فقال اذا كنتِ من اللواتي يعددنَ الحبيب المفارق كالميت فاننا نرسل في طلبهِ فيحضر في اقل من لمحة عين

فنستقصي البحث لعلنا نجد سبباً يوجب موته لا نفيه . فاحمرّ
وجه الاميرة جرليا وقالت له اليك عن هذا المزاح المذموم
واعلم انك احرمت معسكر الصليب فارساً من فرسانه ومنحة
لاعدائنا وفتحت لاهل الظنون والاغراض باباً ليقولوا ان
ريكاردس قلب الاسد قد نفى هذا الفارس من معسكره خوفاً
من ان يقاسمه الشهرة . فصرخ ريكارد قائلاً أ لي تقولين هذا
القول . أأنا اغار من احد . ليته كان هنا الآن حتى اطرح
تاجي وصولجاني والاقيه في ميدان النزال واريك ان ريكارد
بلنتجنت لا يخاف مخلوقاً ولا يغار من انسان. هذا ليس رأيك
فيَّ فلا يكن غيظك او حزنك او فقد حبيبك سبباً لسوء
ظنك في نسيبك . فقالت له أ تسميه حبيبي نعم انه كان يحبني
وقد ضحى حياته ليثبت حبه لي . وانا على ضعفي كنت له نوراً
يرشده في سبيل البسالة والمجد على ان كل من يقول اني
نسيت منزلتي او انه تعدى حدود منزلته فقوله باطل ولو
كان الملك نفسه . فقال لها لا تنسبي اليَّ يا عزيزتي اقوالاً لم
اقلها فاني لم اقل انك اكرمت هذا الفارس اكثر مما يستحقه
هو او غيره منك او من اية اميرة كانت ولكني اعلم كيف

يبتدئ الحب . ولكن لا فائدة من الكلام مع فتاة تظن نفسها احكم من كل الناس ثم استأذن منها وخرج .

وبعد اربعة ايام من ذهاب السر وليم عبداً مع الحكيم العربي جلس الملك ريكارد في خيمتهِ يتبصر في امر الزحف على اورشليم وكان الجنود يهتمون باصلاح اسلحتهم وبيطرة خيولهم والاستعداد لعرض الجيوش في الغد . وكان الملك قد ارسل البارون ده فو الى عسقلان ليأتيهُ بالمدد والميرة . وفيما هو يصغي الى اصوات الجنود دخل واحد من الفرسان وقال ايها الملك ان بالباب رسولاً من صلاح الدين . فقال عليَّ بهِ فادخلهُ الفارس واذا هو عبد اسود طويل القامة مهيب الطلعة حسن الملامح لا تظهر عليهِ سمة الزنوج مع انهُ اسود مثلهم . وهو معتمٌ بعمامةٍ بيضاء ولابس ثوبًا من جلد النمر يصل الى ركبتهِ وموشَّح بوشاح ابيض وساعداهُ عاريان ومعهُ كلب كبير يقودهُ بسلسلة من ذهب فلما صار امام الملك سجد وعفَّر ثم ركع على احدى ركبتيهِ وناول الملك منديلاً من الحرير ففتحهُ واذا فيهِ رسالة من السلطان صلاح الدين يقول فيها "من صلاح الدين ملك الملوك الى ريكارد ملك الانكتار

سلامٌ على من اتبع الهدى . اما بعدُ فقد علمنا من كتابك انك فضَّلتَ الحرب على السلم والعداوة على الصداقة فسينصرنا الله ونبيهُ عليك ونريك بفساد رأيك . وفي ما بقي فانتَ مكرَّم عندنا معزَّز وهداياك وقعت منَّا موقعًا حسنًا ولا سيما الفرزمان اللذان بعثتها الينا وقد بعثنا اليك الآن عبدًا نوبيًا صادق الخدمة حسن الراي يستطيع ان يعبّر عمَّا في ذهنهِ بالاشارة لان الله سبحانهُ قد اعدمهُ النطق فاقبلهُ منَّا واستعن بهِ على امرك ونحن نسألهُ تعالى ان يهديك الى السراط المستقيم او يجمعنا بك في ميدان القتال"

فقرأ الملك ريكارد الرسالة ثم التفت الى العبد وتأملهُ فاعجبهُ منظرهُ جدًّا فقال لهُ أَوثني انت فرفع العبد رأسهُ ورسم رسم الصليب على وجههِ فقال الملك اذًا انت مسيحي فهل تعرف ان تجلو السلاح . فاشار العبد بالايجاب وقام الى سلاح الملك وانزلهُ عن عمود الخيمة واشار الى كيفيَّة جلائهِ. فقال لهُ الملك احسنتَ وستبقى في خيمتي اكرامًا لمن ارسلك لي . فسجد العبد ثانية وعفَّر ثم نهض ووقف بعيدًا عن الملك فقال لهُ الملك اشرع من الآن في جلاء هذا الترس واصقلهُ

حتى يصير كالمرآة . فانزل الترس وجلس يجلوهُ . وحينئذٍ دخل السر هنري نفيل وقال . اتت التحارير من انكلترا يامولاي . فاخذ الملك رزمة التحارير وفتحها وقال أوّاه هل يعلمون المخاطر المحيقة بملكهم ثم قال لنفيل اخرج الآن لاني احبّ ان اقرأ هذه وحدي فخرج وجعل الملك يقرأ عن اختلاف اخويهِ يوحنا وجوفري وشبوب الحروب الاهليَّة في البلاد وكان يقابل الاخبار بعضها ببعض ليرى ما بينها من المطابقة والمخالفة وهو بقرب باب الخيمة وقد امر برفع السجف عنهُ ليتمتع بالنسيم وكان العبد جالساً وراءهُ يجلو السلاح ويصقلهُ وقد جلا ترساً كبيراً كان الملك يحملهُ عند الهجوم على الحصون وليس عليهِ رنك ولا رسوم فلا يمتاز بهِ الملك عن غيرهِ من آحاد الجند واتقن العبد جلاءهُ حتى صار صقيلاً كالمرآة

وفيما كان الملك يقرأُ المكاتيب ويتأمَّل فيها وافكارهُ مضطربة بالحوادث التي حدثت في مملكتهِ دخل المخيَّم احد المشعوذين بثياب اخلاق فرآهُ الجنود ولم يستغربوا امرهُ لان كثيرين من اليهود والاقباط والاتراك والمغنين والمشعوذين كانوا يدخلون المعسكر كل يوم فاجتمع حولهُ نفر من الحرس

وطلبوا منهُ ان يرقص وتهددوهُ بالضرب ان لم يجب طلبهم ·
فجعل يطفر على الارض ويرقص وهو يتنقل من جهة الى
اخرى حتى دنا من خيمة الملك وصار على نحو اربعين خطوة
منها وحينئذٍ طفر طفرات شديدة ووقع على الارض مغمىً
عليهِ · فاجتمع الجنود حولهُ وقال احدهم اسقوهُ ماء والاَّ مات
فقال الآخر هاتوا النبيذ لنسقيهُ فقال الاول انا اراهنك انهُ
لا يشرب النبيذ ولو مات فقال آخر هاتوا القرن فاننا نسقيهُ
كما نسقي الخيل وفتحوا فمهُ براس الخنجر وادخلوا طرف القرن
فيهِ وسقوهُ كوبةً كبيرة دفعة واحدة فشربها ثم تنهَّد طويلاً
وقال الله كريم فقهقهوا قهقهة نبهت الملك فالتفت اليهم
وانتهرهم فخافوا وجعلوا يختفون من وجههِ ولكنهُ عاد الى قراءة
المكاتيب فعادوا الى الشعوذ وحاولوا انهاضهُ عن الارض فلم
ينهض فحاولوا جرَّهُ فكان يئن ويئنُّ ويغطُّ ثم التفت الملك
اليهم ثانيةً فتركوا المشعوذ واختفوا فبقي المشعوذ في مكانهِ

الفصل الحادي والعشرون

تقدَّم ان الملك ريكارد كان جالساً في خيمتهِ عند بابها

يقرأ المكاتيب التي وردت عليهِ من بلادهِ والعبد النوبي
جالسًا وراءه يجلو الترس الكبير والمشعوذ نائمًا او متناومًا
امام باب الخيمة والحرس والجند لاهين بالعابهم التي كانوا
يلعبون بها صامتين لئلّا يسمعهم الملك . فرأى العبد في الترس
الذي صار صقيلًا كالمرآة صورة المشعوذ يرفع رأسهُ ويتلصّص
ثم يزحف نحو خيمة الملك زحفًا بطيئًا لا يُنتبه اليهِ ثم يسكن
ويرفع راسهُ ويتلصّص ويزحف قليلًا . فرابهُ ذلك وقال في
نفسهِ لا بدّ من غرض قبيح لهذا الرجل فاستعدّ لهُ . ولمّا صار
المشعوذ على نحو عشر خطوات من باب الخيمة نهض على رجليهِ
ووثب على الملك كانهُ الاسد الضاري واخرج خنجرًا من كمّهِ
وهمّ بطعنهِ فرآه العبد حينما وثب فوثب ايضًا وقبض على يدهِ
التي فيها الخنجر فحوّل المشعوذ يدهُ وطعن العبد بهِ في ذراعهِ
فقبض العبد عليهِ وجلد بهِ الارض فالتفت الملك ورأى ما
حدث فنهض قائمًا ورفع الكرسي الذي كان جالسًا عليهِ
وضرب بهِ راس المشعوذ فقتلهُ قعصًا ثم نادى بالحراس
فركضوا حالًا الى الخيمة فقال لهم أهذا شأن حرّاس الملك
فجعلوا يتعوّذون بالله فقال لهم اخرسوا وسدّوا افواهكم ألم

تروا قتيلاً قبل الآن اخرجوا هذه الجثة من هنا واقطعوا
راسها وارفعوهُ على رمح واما انت يا صديقي الاسود — ما هذا
أُجرِحتَ بهذا الخنجر المسموم فلا بدَّ ان يكون هذا الخنجر
مسموماً والّا ما هجم بهِ هذا الكلب على الاسد . ثم التفت الى مَنْ
حولهُ وقال مصوا لهُ السم من الجرح فان السم لا يفعل بالفم.
فنظر الحرّاس بعضهم الى بعض مندهشين فقال الملك ما لكم
أتخافون من الموت فقال لهُ احدهم اني لا اخاف من الموت
ولكنني لا اريد ان اموت مسموماً من اجل عبد اسود يباع في
السوق كما يباع راس البقر وقال آخر ان جلالتهُ يأمرنا بمص
السم كانهُ اكلة طيبة . فقال الملك اني لا اطلب من احد ان
يفعل ما لا افعلهُ انا قال ذلك وقبض على ذراع العبد غصباً
عنهُ وعن ممانعة الحاضرين وجعل يمص الدم بفمهِ ولكنهُ لم
يشرع بمصهِ حتى تملّص العبد منهُ ولفَّ يدهُ بطرف وشاحهِ
واشار براسهِ ويديهِ وعينيهِ اشارات كثيرة تدلُّ على الممانعة
وتقدَّم احد الحرّاس ايضاً وقال انهُ مستعد ان يمصَّ كل
نقطة من دم العبد بل ان ياكلهُ آكلاً ولا يدع الملك يمص
نقطةً أُخرى من دمهِ . وحينئذٍ دخل السر هنري نفيل وشدَّد

اللوم على الملك فانتهره الملك وقال له ان الجرح طفيف وما هو الا خمش صغير فلا خطر منهُ · وكأنهُ خجل من تنازلهِ الى هذا الحد فقال لنفيل انا لم افعل ذلك الا لاقنع هولاء الجهال الجبناء ان مص السم من الجراح لا يضر وانهُ اذا أصيب احدهم بسهم مسموم فعليهم ان يمصوا السم بفمهم من جرحهِ فيشفى. والآن خذ هذا العبد وابقهِ عندك واحرص عليهِ فقد تغير فكري في شأنهِ واعتنِ بهِ ولا تضيق عليهِ بل اطلق لهُ الحرية في خيامك ولكن لا تدعهُ يخرج منها . وانتم ايها الحراس النهاء ارجعوا الى اماكنكم ولا تحسبوا انفسكم في بلادكم حيث لا يؤخذ احد بالغدر بل تمشي العداوة في نور النهار كما تمشي الصداقة . اذهبوا وافتحوا عيونكم وآذانكم والا قطعت جرايتكم وامتكم جوعاً . فخرج الحراس وجعل نفيل يلوم الملك لانهُ لم يعاقبهم على تغاضيهم فانتهرهُ الملك وقال لهُ أتريد ان اهتمّ بامر جرى ضد شخصي اكثر مما اهتممتُ بامر جرى ضد علم انكلترا وشرفها فقد سُرِق علم انكلترا وأُهين شرفها وحتى الآن لم نفعل شيئاً وهؤلاء العرب يقولون

لا يسلمُ الشرفُ الرفيعُ من الاذى حتى يراقَ على جوانبهِ الدمُ

ثم التفت الى العبد وقال له ان السلطان يقول انك خبير بكشف الغوامض والاسرار فان كنت تكشف السارق اعطيك ثقلك ذهبًا فما قولك

فحاول العبد النطق وكأنه عجز عنه فاحنى راسهُ كمن يقول نعم اقدر ان اكشفهُ . فتهلّل وجه الملك وقال أتقدر ان تكشف السارق فاشار العبد بالايجاب . فقال الملك ولكن كيف نفهم مرادك أتقدر على الكتابة . فاشار العبد بالايجاب ايضًا فقال الملك اعطوهُ دواةً وقرطاسًا . فقال نفيل ان هذا الرجل ساحر والسحرة يستخدمهم الشيطان لزرع الزوان بين الحنطة . فانتهرهُ الملك وقال له قد عثرتُ على واسطة ازيل بها العار عن انكلترا فهل تمنعني عن استخدامها . وكان العبد قد اخذ القرطاس وكتب عليه باللغة الافرنسية لا باللغة العامة الكلام الآتي

الى ريكارد ملك انكلترا الذي لا يُقهر

الخفايا ضمن صناديق مقفلة ولكن الحكمة تجد مفاتيحها .

فلو وقف هذا العبد ومرّ امامهُ جميع جنود الصليبيين بالترتيب وكان السارق معهم لعرفهُ ولو كان متبرقعًا بسبعة براقع

فلما قرأ الملك الكتابة قال لنفيل قد اسأت الظن في هذا الرجل والآن انت تعلم ان جميع الصليبيين سيمرون غداً ويحيون العلَم الجديد ولا بدَّ من أن يكون السارق معهم والا فغيابهُ عنهم كافٍ لاشهارهِ فاذا عرفتَ هذا العبد من بينهم فالله ينصف بيني وبينهُ :

فقال نفيل انتبه يامولاي الى ما تفعل فقد اجتمعت كلمتنا مرَّةً اخرى على غير انتظارنا فهل تفتح باشارة من هذا العبد الاسود جراحاً لم تندمل حتى الآن . أَوْ تستخدم اجتماع احلافنا ومرورهم امام علمنا لكي يعوضوا عمَّا لحق بنا من الاهانة واسطةً لتفريق كلمتنا واحياءِ اسباب الخلاف القديمة وانا لم اجسر على هذا القول الَّا لان محاولة ايجاد السارق تخالف العهد الذي تعهدتَ بهِ امام مجمع الامراء فاعترضهُ الملك وقال لهُ اخطأتَ يا نفيل فانني لم اعد احداً بالكف عن السعي في ايجاد مَنْ اهان شرفي . والأَوْلى بي ان اتخلَّى عن مملكتي بل عن حياتي من ان اعد هذا الوعد وكل ما قلتهُ يعود الى هذا القول وهو اذا كان دوق النمسا يقوم ويعترف بانهُ سرق العلَم او لهُ دخل في سرقتهِ فانّا اسامحهُ من اجل هذا الجهاد . فقال نفيل

وما اذنا ان هذا العبد لا يخدعنا . فقال الملك انت تظن نفسك احكم الحكماء والحال انك من اجهل الجهال . خذ هذا العبد كما قلت لك واحترس عليهِ فانهُ فوق ما تظن . ثم التفت الى العبد وقال لهُ كن مستعداً لتتمم ما وعدت بهِ وتمنَّ علينا بعد ذلك ما شئت. فاخذ العبد ورقة وكتب فيها ليس للعبد ان يتمنى اذا فعل ما امرهُ بهِ مولاهُ اذ لا ثواب على الواجب فاخذ الملك الورقة وقرأها ووقف على قولهِ لا ثواب وقال هذا من اصطلاحات الفرسان الخصوصيَّة فحقاً ان هؤلاء المشارقة امهر الناس في تعلُّم اللغات

الفصل الثاني والعشرون

نعود الآن الى ما كان من امر الحكيم والسر وليم الذي وُهِبَ لهُ عبدًا فنقول : تبع العبد مولاهُ الحكيم الى خيامهِ كمن وقع عن شاهق فتحطَّم وبقي فيهِ من الحياة رمق يزحف بهِ الى بيتهِ. فلم يلبث ان وصل الى خيام مولاهُ الجديد حتى طرح نفسهُ على الارض وجعل يبكي ويتأوَّه . وكان الحكيم قد امر رجالهُ ان يتأهبوا للرحيل قبل الفجر فلما سمعهُ يبكي جلس

اليهِ واخذ يعزّيهِ ويطيّب قلبهُ وقال لهُ اسمع ما قال الشاعر

وما في سطوةِ الارباب عيبٌ ولا في ذلّةِ العبدان عارُ

وما انت بخير من يوسف بن يعقوب عليهما السلام وقد بيع للعزيز عبداً ولا انا ممن يعامل الناس بالجفاء . فاراد السر وليم ان يشكرهُ فخنقتهُ العبرات واعتقل لسانهُ عن الكلام فتركهُ الحكيم ودخل الخيمة وجلس فقدموا لهُ الطعام فاكل ثم امر ان يقدموهُ للسر وليم فابى ان ياكل . وقبل بزوغ الفجر قام الخدم ورفعوا الخيام وحملوها على الجمال ثم ايقظوهُ وايقظوا الحكيم وقدموا لهما فرسين مسرجين فركب الحكيم على فرسهِ واشار الى السر وليم ان يركب الثانية وساروا جميعًا يتقدمهم الحرس الانكليزي خوفًا من ان يتعرض لهم احد في اثناء مسيرهم في المعسكر . فلما خرجوا من المعسكر سار اثنان من فرسان الحكيم في المقدمة واثنان في الساقة لكي لا يباغتهم عدو في الطريق . وكان السر وليم يلتفت الى خيام الصليبيين والقمر مشرق عليها ويودعها بالعبرات الغزار فالتفت اليهِ الحكيم وقال

تصبَّرْ للعواقبِ وانتظرها فانتَ منَ العواقبِ في اثنتينِ

تريحكَ بالمنى او بالمنايا فانّ الموت احدى الراحتينِ

فقال الفارس في نفسهِ ياحبَّذا الموت ولكنهُ لم يجب الحكيم بشيء خوفاً من اطالة الوعظ والانذار فلمَّا رأى الحكيم منهُ ذلك نادى واحداً من رجالهِ وقال لهُ قصَّ علينا قصة تخفف عنا مشقة السرى . وكان هذا الرجل راوية من مشاهير الرواة فجعل يقصُّ النوادر وينشد الاشعار الى ان بدت غرَّة الصباح فنزل الحكيم ورجالهُ وصلُّوا الصبح والفارس ينظر اليهم ويتعجَّب من شدَّة تدينهم وورعهم ثم ركبوا وجدُّوا السير الى ان بلغوا ارضاً كثيرة الحزون والآكام فرأوا عن بعدٍ غباراً قد سدَّ الآفاق ومن تحتهِ كوكبة من الفرسان قد اطلقوا الاعنَّة واشرعوا الاسنَّة فنادى الحكيم رجالهُ قائلاً كونوا على حذر فقال لهُ السر وليم علامَ تخاف هولاء الفرسان ونحن الآن في هدنة فقال ان هولاء من فرسان الهيكليين الذين لا عهد لهم ولا ذمام فان الاسد ريكارد والنسر فيليب يعفوان عند المقدرة ودبَّ الالمان ينام اذا شبع واما هؤلاء الذئاب فلا يعفُون عن شيء ولا يشبعون وقد جاءوا الآن ليقطعوا عنا طريق الماء ولكن خاب مسعاهم وساء فألهم واوردهم القضاء والقدر حتفهم فهيَّا بنا نقابلهم بالسيف والقنا . فقال السر وليم

اما انا فليس لي في منازلتهم أَرَب لانني قد اقسمتُ بالله ان لا احارب احدًا من جنود النصارى فقال لهُ الحكيم انَّ لهم في قتالك الغرض الاوَّل لكي لا تشهد بنكثهم لعهد الهدنة . هذا ونحن لم تجرِ لنا عادة ان نجبر احدًا على الحنث بيمينهِ فاذهب مع الجمال والعبيد الى لحف تلك الاكمة وانا اقابل هولاء الانذال بفرساني وسينصرنا الله عليهم ونتبعكم بعد قليل . فسار السر وليم مع العبيد والجمال وهو يقول ان هؤلاء الهيكليين لا يستحقون ان تُرعى لهم حرمة لانهم لم يرعوا حرمة الهدنة

اما الحكيم فتفرَّق هو وفرسانهُ واحاطوا بالهيكليين احاطة الهالة بالقمر او الاكمام بالثمر وابتدروهم برمي النبال فانهالت عليهم انهيال السيل وكان الهيكليون بالخوذ والمغافر والدروع والسراويل والقفافيز والجراميق وكلها من ذكر الحديد والزرد النضيد . وكانت دروع الزرد مُسبَغة على خيولهم ايضًا حتى كنت ترى الفارس وفرسهُ فتحسبهما قطعة واحدة من الحديد . ثم بوَّق واحد منهم فاجتمعوا تحت لوائهم وهجموا على جنود الحكيم هجمةً تزحزح الجبال فالتقاهم الحكيم

وجنوده بالبيض الصفاح وكانت بينهم ساعة تشيب الاطفال وتقصر الآجال هذا والحكيم يصرخ في رجاله ويحرضهم على القتال الى ان كلّ الفريقان من الكرّ والفرّ. ثم بوّق الهيكليون ثانيةً فاجتمعوا كلهم تحت لوائهم واقاموا ساعة يتداولون وكأنهم ندموا على ما فعلوا او رأوا انهم اخطأوا الغرض فالووا اعنّة خيولهم وساروا الهوينا وتركوا قتلاهم وقتلى عدوهم في ساحة القتال. فنادى الحكيم رجالهُ وقال ادفنوا قتلاكم واجمعوا سلب اعدائكم وسيروا بنا في اثر الجمال. فقيدوا الجرحى وجمعوا اسلاب القتلى وساروا على اثر الجمال الى ان وصلوا الى غور الاردن فوجدوها عند الينبوع الذي نزل السر وليم عندهُ لما كان ذاهبًا الى عين جدي. فركض العبيد للقاء مولاهم وهنأوهُ بالسلامة واخذوا فرسهُ وحلّوا حزامها وكان السر وليم واقفًا بجانب الينبوع والدموع ملء عينيهِ فالتفت اليهِ الحكيم وقال

في شدةٍ يأتي الرخاء عقيبها ‌ ‌ واسىً يبشّرُ بالسرور العاجلِ

فقد دنونا من منازلنا وسترى فيها ما تحبّ وتشتهي. فحاول السر وليم ان يشكرهُ على احسانهِ فمنعتهُ العبرات والزفرات

عن الكلام * ثم صلى الحكيم ورجالهُ صلاة الظهر واكلوا ما حضر من الزاد وقدموا للسر وليم فلم يأكل ولم يشرب. فقام اليهِ الحكيم وجسَّ نبضهُ فقال اراك متعبًا ومحتاجًا الى الراحة ثم اخرج حنجرًا وصبَّ منهُ في كاس من الماء وسقاهُ فلم يكن الَّا برهة قصيرة حتى وقع عليهِ سبات عميق

الفصل الثالث والعشرون

واذا نظرتَ فان بؤسًا زائلاً للمرء خيرٌ من نعيمٍ زائلِ

لمَّا استيقظ السر وليم من نومهِ وجد نفسهُ في ثياب الحرير على فراش الاستبرق وحول سريرهِ كلَّةٌ تكاد لا ترى لدقَّة نسجها تقيهِ من البعوض الذي انحل جسمهُ وحرمهُ النوم منذ مجيئهِ الى بلاد الشام فظن نفسهُ في حلم وجعل يغمض عينيهِ ويفتحها ليرى أفي يقظة هو ام في منام. ثم نهض من السرير ليلبس ثيابهُ وعدَّتهُ فلم يجد امامهُ الا كساءً شرقيا وسيفًا هنديًا فقال في نفسهِ ما هذه الوسائط يستعملها هذا الحكيم لكي يغريني بالاسلاميَّة ولكن ما كنتُ لافعل ولو ملكني الهند والسند. وفيما هو يتأمَّل في هذا الامر اذا بالحكيم يناديهِ

ويقول هل من مانع من الدخول فقال اهلاً بسيدي الحكيم فقال الحكيم وان كنت آتيك بصورة غير صورة الحكيم فقال اهلاً بك كيفما اتيت فدخل الحكيم واذا به الامير شيركوه الكردي الذي حاربهُ ثم صافاهُ ورافقهُ الى عين جدي . فقال السر وليم في نفسهِ ما هذا الّا حلم وجعل يتفرَّس في الحكيم متعجباً من امرهِ . فقال الحكيم أتعجب من مهارتي في صناعة الطب وانا من فرسان الحرب أوَلا تعلم ان رجل الحرب يجب ان تكون لهُ مشاركة بفن الطب ايضاً أوَتتعجب من تقلُّب الانسان بتقلب الاحوال أوَلاَ تعلم ان الظواهر قد لا تدل على البواطن . فقال صدقتَ فها انا في الظاهر خائن وفي الباطن اصدق مقيم على العهد والولاء . فقال الحكيم وهذا هو اعتقادي فيك ولذلك سعيت في نجاتك لانني آكلتك وشاربتك عند الناسك . ولماذا اراك الآن قلقاً ألا تستحسن هذا اللباس فقال بلى استحسنهُ ان لم يُقصَد بهِ تحويلي عن مذهبي فقال لهُ الحكيم انني لاعجب من سوء ظنك فينا أتظن اننا نجلب الناس الى ديننا بالرشوة أوَلا تعلم ان من لم يهدهِ الله فليس لهُ من هادٍ وان الذين يدينون

بدينا من قومكم طمعًا باموالنا يصليهم الله عذاب السعير .
فالبسْ هذه الثياب حتى اذا جلست في معسكر صلاح الدين
لا يتعرَّض لك احد

فقال وكيف يمكنني ان اجول في المعسكر وانا عبد
مقيَّد . فقال معاذ الله ان نستعبد الرجل الذي ناجزنا في
ميدان النزال فقال السر وليم بالله عليك ايها الامير الجليل
لا ترِني سبيلاً للعتق تأباهُ نفسي الابيَّة . فقال الحكيم وما
قولك في سبيل يزيل عنك العار ويرد لك الشرف وذلك
بكشف اللص الذي سرَق العَلَم فاني قادر ان امكّنكَ من
ذلك اذا اطعتني . فقال الفارس يا مولاي انا مقتنع بحكمتك
وكرم اخلاقك فأَعِدُك بالطاعة التامَّة في كل ما تأمرني بهِ الاَّ
في ما يمسُّ معتقدي . فقال ان كان الامر كذلك فاسمع ما
اقول ان كلبك قد شفي الآن فقال الفارس كفى فقد فهمتُ
مرادك . فقال الحكيم وهل في المحلَّة احد يعرفهُ فقال الفارس
كلاَّ لانني لما سُرِق العَلَم وعلمتُ ان لا نجاة لي من الموت
اطلقت خادميَّ وارسلتهما الى بلادي . ولكن انا معروف في
المحلَّة جيدًا . فقال الحكيم ساغيّر لونكما حتى لا يعرفكما احد

الفصل الرابع والعشرون

"يؤذي القليل من اللئام بطبعهِ" كالكأس تكدرُ بالقذى فتعيفها
ولكم رأينا الليث فرّق بين انـــصارٍ فصارت كالهباء صفوفها

قد علِم القارئ مما تقدَّم مَن هو هذا العبد الاسود وما غرضهُ من الوقوف بجانب قلب الاسد على الاكمة التي سُرق عنها العلَم الانكليزي. فان الملك ريكارد نصب خدراً لزوجتهِ وابنة عمهِ وجواريهما على الاكمة ووقف هو وامراء مملكتهِ في عرضها وبجانبهِ اخوهُ وليم ارل سلسبري الملقَّب بالسيف الطويل وهو رافع العلَم الجديد وامامهم الجيوش الصليبيةَ تموَّج في عرض ذلك البر كانها البحر العجاج وفي صدر كل جيش رئيسهُ والاعلام والبنود تخفق فوق رأسهِ وهم يسيرون الهوينا امام تلك الاكمة وكلَّما دنا منها رئيس من الرؤساء يتقدَّم نحو الملك ريكارد ويحييهِ ويحيّي العلَم الانكليزي الجديد ثم يسير مع جيشهِ ولسان الحال يقول

تمضي المواكب والابصار شاخصةٌ منها الى الملك الميمون طالعهُ

وكان الغرض من عرض الجيوش على هذه الصورة

ارضاء الملك ريكارد والتعويض عن الاهانة التي لحقت بشرف انكلترا وهذا ارتآه الامراء من تلقاء انفسهم ورضي بهِ الملك ريكارد . فلم تكن ترى الّا خيولاً صاهلة ورماحاً بارقة واعلاماً خافقة وفرساناً غائصين في الزرد والحديد

مبرقعي خيلهم بالبيض متخذي هام الكماة على ارماحهم عذبا
ان المنيَّة لو لاقتهم وقفت خرقاء تتهم الاقدامَ والهربا

فيناديهم لسان الحال ويقول

أبني العوالي السمهريَّة والسيـوف المشرفيَّة والعديد الاكثرِ
مَن منكم الملك المطاع كانهُ تحت السوابغ تُبَّعٌ في حميرِ

فيجيبهُ لسان حالهم قائلاً

القائدُ الخيلِ العتاق شوازباً خُزراً الى لحظ السنانِ الاخزرِ

قلبُ الاسد المفدّى ذلك هو قائدنا وامامنا اذا التطم القنا بالقنا وفي ما سوى ذلك فلكلِّ فريق ملك او امير لهُ يخضع وبامرهِ يصدع

وكان الملك ريكارد راكباً على جواد مطهَّم وعلى رأسهِ تاج مرصَّع بالدر والجوهر وهو يردُّ التحيَّة للقواد على حسب رتبهم ويلتفت الى العلَم الخافق فوق راسهِ كانهُ يقول ان هذه التحيَّة لك وانا اردُّها عنك . وكلَّما مرَّ قائد من القواد الذين

يظن فيهم السوء يلتفت الى العبد والكلب . ولما مرَّ ملك
فرنسا ووقف مقابل الاكمة وهمَّ بصعودها لاقاهُ ريكارد
فالتقيا في منتصف الطريق التي بينهما وتصافحا فضجَّت
العساكر كلها باصوات الفرح والحبور. ثم مرَّ فرسان الهيكليين
وتحتهم الخيول العربيَّة تخطر كالعرائس وفي مقدمتهم رئيسهم
العظيم فنظر الى الملك ريكارد ورفع يدهُ وباركهُ لانهُ من
رؤساء الدين . ثم مرَّ دوق النمسا فالتفت الملك الى العبد
وقال لهُ كن على حذر ودع الكلب يراهُ جيدًا. فلم يبدِ
الكلب حراكًا ثم تقدم مركيز منسرات وكان قد قسم جنودهُ
الى ثلاث فرق وركب في فرقة منها وعليهِ حللٌ مزخرفة
بالذهب والفضة ومرصعة بالحجارة الكريمة وبجانبهِ رجل
شيخ محلوق اللحية والشاربين لا اثر للعظمة عليهِ مع ان مقامهُ
رفيع جدًا فقد كان مرسلاً من قِبَل البنادقة لمراقبة احوال المركيز
فلما دنا المركيز من الملك ريكارد مشى الملك نحوهُ خطوتين
او ثلاثًا ليلاقيهُ وقال لهُ ارى خيالك يتبعك حيثما ذهبت
فتبسَّم وفتح فاهُ ليجاوب الملك ولكن قبل ان ينطق بكلمة هجم
الكلب عليهِ كالاسد الضاري وامسك بخناقهِ ورماهُ على

الارض . فالتفت الملك الى العبد وقال قد اصاب كلبك
الحزُّ فابعدهُ عن هذا الخائن لئلّا يقتلهُ فبذل العبد كل قوتهِ
حتى ابعد الكلب عنهُ. فاسرع كثيرون من قادة الجيش الى
المركيز ورفعوهُ عن التراب وهم يقولون قطّعوا العبد والكلب
تقطيعًا . فنادى الملك ريكارد باعلى صوتهِ وقال كل مَنْ
يلمس العبد او الكلب يموت موتًا . وانت يا مركيز منسرات
رجل خائن فاستعد للمحاكمة . فقال المركيز ما هذا الصنيع
وما هذا الاحتقار أَهذه هي العهود التي عاهدتنا بها بالامس
ثم تقدم رئيس الهيكليين وقال هل صار ملوك الصليبيين
ارانب حتى يصطادهم ملك الانكليز بالكلاب. وتقدَّم ملك
فرنسا وقال لا بدَّ من خطا في ما حدث فقال رئيس اساقفة
صور أَرى ان هذه مكيدة من العدو فيجب ان نقتل الكلب
ونعذّب العبد . فقال ريكارد كل من يمسها موتًا يموت
وانت يا مركيز قف وانكر ان استطعت ما يدَّعي عليك بهِ
هذا الحيوان الابكم وهو انك اهنت شرف انكلترا وحاولت
قتل هذا الحيوان . فقال المركيز اني لم المس عَلَم انكلترا بيدي
فقال الملك وما ادراك اني اردت علَم انكلترا ولكن انت

تعرف جريمتك وهي التي قادتك الى القول بما قلت . وكان
الشعب قد اشتدّ فنادى ملك فرنسا وقال ايها الامراء
والاشراف احقنوا دماء عباد الله واصرفوا جنودكم الى اماكنها
ونحن نجتمع في نادينا ونتذاكر في هذا الامر . فقال ريكارد
كنتُ احب أن نستنطق هذا الخائن وهو معفر بالتراب ولكن
ليكن كما قلت ايها الملك . وحينئذٍ ضُربت الابواق واجتمع
كل فريق حول قائدهِ وانصرفوا الى اماكنهم وهم نادمون
على ما اعتقدوهُ في ريكارد من الشهامة ومضمرون له السوء
وانعقد نادي الامراء ودخل المركيز بعد ان غيَّر اثوابهُ
التي كانت عليهِ ودخل معهُ دوق النمسا ورئيس الاسبتارية
وغيرهم من الرؤساء كانهم منتصرون لهُ ثم دخل ريكارد
وهو بالثياب التي كان راكبًا بها ونظر الى الرؤساء المحيطين
بالمركيز نظر الازدراء وادَّعى عليهِ بانهُ سرق علم انكلترا وجرح
الكلب الذي كان يحميهِ . فقام المركيز وانكر هذه التهمة .
وكان ملك فرنسا جالسًا في مجلس القضاء فقال مخاطبًا ملك
انكلترا ايها الاخ ان هذه الدعوى غريبة لم يُسمَع بمثلها وانت
قد بنيتَ حكمك على الظن وعلى هجوم الكلب على المركيز فلا

يليق بنا ان نكذّب قول امير ونصدّق هذا الحيوان الاعجم.
فاجابهُ الملك ريكارد قائلاً لا يغرب عن فطنتك ايها الاخ
ان الله القدير قد منح الكلب طبيعة لا تعرف الخداع فهو
يذكر العدو والصديق والسيئة والاحسان ويماثل الانسان
في الفطنة ولا يماثلهُ في الخداع . فقد يمكنك ان ترشي الانسان
حتى يقتل سيّدهُ والقاضي حتى يعوّج قضاءهُ ولكن لا يمكنك
ان ترشي الكلب حتى يسيء الى مَنْ احسن اليهِ . أَلْبِسْ هذا
المركيز ما شئْتَ من الحلل وادهن وجههُ بما شئْتَ من الادهان
واخفهِ بين مئات من الناس وانا اراهنك على تاجي وصولجاني
ان الكلب يعرفهُ من بينهم ويعاملهُ كما عاملهُ على الاكمة . وهذه
الحادثة ليست نادرة على غرابتها . فقد اتُّخِذَت شهادة الكلب
دليلاً كافيًا على اثبات التهمة على القتلة واللصوص وحدث
شيءٌ من ذلك في بلادك ايها الملك وتبارز الناس مع
الكلب واني أُؤكّد لك ان الجماد نفسهُ قد يكون كافيًا
لكشف الجرائم واثباتها

فقال الملك فيليب نعم جرى ذلك في ايام احد اسلافنا
حينما كان الناس يتحاربون بالعصي امّا الآن فلا يليق بنا ان

نجعل اميرًا يرمي سيفهُ ورمحهُ وينازل كلبًا بالعصا . فقال الملك ريكارد وانا ايضًا لا ارضى ان اخاطر بحياة هذا الكلب الامين ولكن هوذا قفّازنا (١) فنحن ندعوهُ للمبارزة معنا والله ينصر المحقَّ منا ولا اظنك تحسب اننا غير كفء لمبارزة مركيز ولما قال ذلك طرح قفازهُ في وسط النادي. فقال ملك فرنسا انا لا اسلِّم ان ملكًا ينازل مركيزًا لاسيما وانت ايها الملك سيفنا وترسنا. وقال سفير البنادقة وانا لا اسلِّم للملك انكلترا بمبارزة احد قبلما يدفع لنا الخمسين الف دينار التي استدانها منَّا فحسبُنا اننا خاطرنا باموالنا وابحنا لهُ ان يبارز الاعداء . وقال ارل سلسبري وانا لا ادع اخي يبارز هذا المركيز فاسترد قفَّازك ايها الاخ وانا ارمي قفازي مكانهُ . وحينئذٍ نهض المركيز وقال ايها الامراء والاشراف ليكن معلومًا عندكم انني لا ارتضي بمبارزة الملك ريكارد لاننا قد اخترناهُ قائدًا لنا ولكن اذا كانت ذمتهُ تطاوعهُ على طلبي الى المبارزة فلا اراني ملومًا اذا اجبتهُ الى ذلك فانا مستعدٌّ ان

---

(١) كانت العادة انهُ اذا دعا فارسٌ فارسًا آخر للمبارزة يطرح قفَّازهُ (اي ما يلبسهُ على كفّهِ من الزرد او نحوهِ) فاذا قبل هذا بالمبارزة امسك القفَّاز بيدهِ والَّا فلا

ابارز اياً كان من اخيهِ فنازلاً . فقال رئيس اساقفة صور اصاب المركيز في ما قال لانهُ اذا انتهى الامر على هذه الصورة لا يمسّ شرف احد . فقال ملك فرنسا نعم اذا اصرّ الملك ريكارد على شكواهُ . فقال الملك ريكارد قد ادَّعيت على هذا المركيز انهُ سرق عَلَمي في جنح الدجى وانا واثق بصدق دعواي وساعيّن مَنْ يبارزهُ ثم التفت الى اخيهِ وقال لهُ امَّا انت يا وليم فلا تجرّد سيفك بدون اذننا

فلما رأَى ملك فرنسا ان الامر تمَّ على هذه الصورة قال اذاً انا احكم ان تفصل هذه الدعوى بالمبارزة بين هذا المركيز والفارس الذي يعينهُ الملك ريكارد واعيّن اليوم الخامس من هذا اليوم لهذه المبارزة . ولكن لا اعلم اين تعيّن مكان ميدان المبارزة لانني لا اريد ان يكون بقرب المعسكر خوفاً من امرٍ يحدث . فقال ريكارد انا ارى ان نطلب من السلطان صلاح الدين ان يعيّن لنا مكاناً عندهُ ولا اظنهُ الَّا محيياً طلبنا فقال الملك فيليب ليكن كما قلتَ وسنرسل ونخبر صلاح الدين بذلك ولو لم يحسن بنا ان نطلع اعداءنا على ما بيننا من الاختلاف والآن افضُّ هذا المحفل واطلب منكم جميعاً ان

لا تقلقوا لهذا الامر ولا تقلقوا بهِ افكار جنودكم بل تطلبوا من الله تعالى ان يقضي بين المتخاصمين بما يشاء. فصرخ الجميع آمين. وحينئذٍ اسرَّ رئيس الهيكليين الى المركيز قائلاً أمستعد انت للمبارزة فقال نعم ولا اخاف احداً الّا ريكارد وحدهُ فقال الرئيس ان هذا الكلب قد نفعنا في تفريق كلمة هولاءِ الناس اكثر من كل دسائسك ومن خنجر الخارجي فاني ارى فيليب مسروراً والدوق يكاد يطير فرحاً وهو يدنو منا. ولما اقترب منهما قال لهُ الرئيس قد ثغرنا اسوار اورشليم فضحك وقال نعم وعمّا قليل يعود كلٌّ منا الى بلادهِ ان شاء الله ولكن ليبقَ ذلك سرّاً بيننا وانت ايها المركيز كان الاجدر بك ان تنازل ريكارد لانك امهر منهُ بالرمح وانا لم اتأخر عن منازلتهِ الّا لان مصلحة الجهاد تمنع من منازلة اميرين مالكين

الفصل الخامس والعشرون

وبعد يومين اجتمع الملك فيليب بالملك ريكارد واثنى على همتهِ واقدامهِ ثم اخبرهُ انهُ عازم على الرجوع الى بلادهِ وارآهُ لائحة من دوق النمسا وغيرهِ من الامراء يعلنون فيها

عزمهم على ترك الجهاد وينسبون ذلك الى ما رأوهُ في الملك ريكارد من الاستبداد والحدَّة . فحزن ريكارد حزناً شديداً ولم يتمالك عن البكاء ولكن سبق السيف العذل . ولما عاد الى خيامهِ وجد ان السلطان صلاح الدين قد بعث اليهِ رسولاً يخبرهُ انهُ عيَّن مكان المبارزة في غور الاردن بقرب دوّة الغفر وانهُ ينتظر قدوم ريكارد وخصمهِ الى هناك . وجرى الاتفاق على ان يركب الملك ريكارد واخوهُ ارل سلسبري الملقَّب بالسيف الطويل ومعهم مئة فارس ويركب المركيز دوق النمسا ورئيس الهيكليين ومعهم مئة فارس الى غور الاردن ويسير كل فريق في طريق ويلاقيهم الملك صلاح الدين بخمس مئة فارس فيتبارز المركيز والفارس الذي يعينهُ الملك ريكارد . فركب الملك ريكارد بفرسانهِ واخذ معهُ زوجتهُ وابنة عمهِ الاميرة جوليا وجدُّوا المسير الى ان صاروا على مقربة من دوّة الغفر وقبل ان ينكشف لهم المكان رأوا فارساً على اكمة من الآكام يترصَّد قدومهم فلما رآهم اطلق العنان لجوادهِ فعدا بهِ كالبرق . وكان البارن ده فو راكباً بجانب الملك فقال لهُ أَلا تسمح لي يا مولاي ان اتقدَّم وارى ما

وراء هذه الآكام لان امر هذا الفارس قد رابني وما ادرانا ان صلاح الدين لا يغدر بنا في هذا القفر. فقال كلاَّ ولقد مُلكُ لا يدفع مكروهاً ولا يغني فتيلاً . وبعد قليل اشرفوا على المكان المعد لنزولهم فرأوا فيه خياماً مضروبة وفرساناً واقفين بجانب خيولهم ثم رأوهم اجتمعوا وركبوا واطلقوا الاعنَّة فارتفع العثير حتى حجبهم عن الابصار ولم يكن الاَّ القليل حتى رأوهم حولهم يلعبون برماحهم العاباً تحيِّر العقول ويرمونهم بالسهام فوقع سهم على هودج الملكة فصرخت صرخة عظيمة وسمع الملك صراخها ونادى برجالهِ كونوا على حذر وكان هودج الاميرة جوليا بالقرب منهُ فقبضت على سهم من السهام وقالت لهُ انظر ايها الملك ان سهامهم لا رؤُوس لها . فاقسم وقال لقد غلبتنا كلنا فانظروا يا رجالي ان السهام بلا رؤُوس والرماح بلا اسنان فسيروا الهوينا لئلاَّ يروا اضطرابنا فيضحكوا بنا

ولما اقتربوا من المحلة اجتمع هؤُلاء الفرسان في صف واحد وساروا وراء فرسان الملك ريكارد ثم خرج للقائهم كتيبة اخرى من الفرسان بالاسلحة المذهَّبة والخيول المطهمة وكلهم في عنفوان الشباب فلما التقوا بفرسان الملك ريكارد

اصطفوا صفين فاجتاز بينهم هو وفرسانهُ وكان قد سار في مقدمتهم لانهُ علم ان السلطان قد خرج لاستقبالهِ ولم يكن الاَّ القليل حتى التقى هذان الملكان العظيمان فترجَّلا وتصافحا وكان السلطان لابساً اثواباً عاطلة من الزينة والزخرفة وانما كان في عمامتهِ ريشة فيها الجوهرة الشهيرة المسماة بحر النور وفي يدهِ خاتم يساوي كل جواهر ريكارد وفي قبضة خنجرهِ جوهرة نادرة المثال ولمَّا ترجَّلا ترجَّلت كل الفرسان ومشوا في خدمتهما

وترحب السطان بالملك ريكارد وعيَّن خياماً مخصوصة لنزول الملكة برنغاريا ورفيقاتها وارسل الخصيان لحراستهنَّ ثم التفت فرأى سيف الملك ريكارد طويلاً عريضاً فقال لهُ لو لم ارَ لمعان هذا السيف في ميدان القتال ما صدَّقت انهُ يمكن لانسان ان يرفعهُ بيديهِ فهل لك ان تريني فعلك بهِ فقال حباً وكرامة ثم تناول لتًّا من الحديد من احد الحضور ووضعهُ على خشبة فقال لهُ البارون ده فو بالانكليزية انتبه يا مولاي الى ما انت فاعل فانك لم تسترد عافيتك بعد المرض فلا تحاول ضرب هذا اللت لئلاَّ تشمت العدو بنا فانتهرهُ ريكارد ثم استلَّ سيفهُ وضرب اللت فبراهُ بري القلم.

فتعوّذ السلطان من هول تلك الضربة ونظر الى يد الملك الضخمة وقابلها بيدهِ النحيفة فقال ده فو بالانكليزية ألا تخجل ان تقابل يدك بيد الاسد فقال لهُ الملك اخرس فلعلهُ يفهم ما تقول .. فقال السلطان انني لا استطيع ان اضرب بسيفك ولكن استطيع شيئاً آخر ربما تحب ان تراهُ وامر فأُتي بوسادة محشوّة بريش النعام. فقال للملك أتقدر ان تقطع هذه الوسادة قطعتين بسيفك فقال الملك كلاَّ وايُّ سيف يقطع ما لا مقاومة لهُ فقال انظر. ثم استلَّ سيفهُ وضرب الوسادة فقطعها شطرين فتقدَّم البارون ده فو وامسك الشطرين بيدهِ وقال هذا هو السحر بعينهِ . وكأنَّ السلطان فهم مقالهُ فاخذ منديلاً دقيق النسج جداً وبسطهُ على حد السيف ثم رفع السيف وجرَّهُ فقصَّ المنديل قطعتين فتعجب الملك من مهارتهِ وقال وجب علينا ان نخاف من مهارتكم كما تخافون من قوتنا . ثم سأَلهُ عن الحكيم وقال اني احبُّ ان اراهُ فامر السلطان فاتوهُ بقلنسوة فوضعها على رأسهِ فاندهش الملك لما رأَى ان الحكيم الذي شفاهُ من مرضهِ هو السلطان صلاح الدين نفسهُ ووقفَ البارون ده فو مبهوتاً وقد جحظت عيناهُ وانفتح فمهُ

فقال الملك ان هذا لمن اعجب ما رأته عيني وسمعت به اذني
فقال السلطان وهذا شأن الدنيا والمرء باصغريه . فقال
الملك أأنت الذي نجى ذلك الفارس وصبغه بالصبغ الاسود
وارسله لكشف العلم جازاك الله عني خيراً . فقال السلطان
نعم والفارس مستعد لينجو عار نهامله . فقال الملك وهل
اخبرته بنفسك وهل علمت ان انظاره طامحة الى من انت
راغب فيها فقال نعم ولكن محبته هي السابقة واظنها الثابتة فلا
يليق بي ان انتقم منه على خيبة آمالي اذ لا ناقة له في ذلك ولا
جمل وما من عاقل يلوم تلك الفتاة اذا احبت بطلاً من
قومها واستجارته عليّ . فشمخ الملك ريكارد بانفه وقال ان
دمه لاحقر من ان يمتزج بدم بلنتجنت . فقال السلطان هذا
عندكم واما نحن فنقول

لا تقل اصلي وفصلي ابداً   انما اصل الفتى ما قد حصل

والآن عليّ ان استقبل دوق النمسا ومن معه لا اكراماً لهم بل قياماً
بحقوق الضيافة . قال ذلك وقام لمقابلة ضيوفه وانزالهم في
المكان المعد لهم . اما الملك ريكارد فجلس ينظم شروط المبارزة
وقضى عليها وقتاً طويلاً يشاور فيه دوق النمسا والسلطان

صلاح الدين مرارًا ولمَّا تمَّت الشروط كتبت بالعربية والفرنسوية وامضاها السلطان صلاح الدين والملك ريكارد والدوق ليوبولد والاول بمقام فيصل في هذه المبارزة والاخيران بمقام حاميين للمتبارزين على ما اقتضتهُ المبارزة حينئذٍ . ثم دخل البارون ده فو على الملك ريكارد وقال ان الفارس المستعدّ للمبارزة منتظر امر مولاهُ فقال لهُ الملك أرأيتهُ وهل هو في العدة الكاملة فقال البارون نعم وعليهِ الدرع البندقية التي عُرِضَت على جلالتك للبيع فقال الملك الظاهر ان هؤلاء البنادقة البخلاء باعوها لصلاح الدين . فقال البارون يا حبذا لو كان مولاي يجتنب هذا الكلام فان الجميع قد صاروا اعداءنا بسببهِ فاذا عادانا البنادقة ايضًا فمن يساعدنا على الرجوع بحرًا . فقال الملك أَصبت ولكن لا تكثر اللوم والتعنيف . والآن اخبرني هل اتيتَ الفارس بمعرّف . فقال نعم اتيتهُ بالناسك الكرملي الذي عرّفهُ قبلاً لمَّا كان مستعدًّا للموت . فقال الملك قل للفارس انني لا اقابلهُ الَّا بعد أن يمحو وصمة ذنبهِ في ميدان النزال واذهب الى خيمة الملكة وقل لها ان تستعد لقدومي . وبعد ساعة من

الزمان ذهب الملك الى خيمة الملكة فوجد امام بابها واحدًا
من اشهر المغنين فقال لهُ على مَ لا تدخل فقال لان هولاء
الخصيان يقطعونني اربًا اربًا اذا حاولت الدخول فقال لهُ
هلمَّ معي فلما وقع نظر الخصيان على الملك احنوا رؤُوسهم
ووقفوا كالاصنام فدخل هو والمغني والتقى هناك بالاميرة
جوليا فقال لها ألم تزالي حاقدة علينا يا ابنة العم. فقالت ومن
يحقد على الملك ريكارد اذا ظهر بمظهرهِ الطبيعي مظهر البسالة
والنبالة والكرم قالت ذلك ومدَّت لهُ يدها فقبَّلها علامةً على
المصالحة وقال لها لا تظني يا عزيزتي انني اظهرت ما لا يجب
من الصرامة فان هذا الفارس قد تعدَّى واجباتهِ فهو مذنب
شرعًا مهما كان السبب الذي دعاهُ الى ذلك وقد حانت لهُ
والحمد لله فرصة يخلع بها ثوب العار عنهُ ويلبسهُ للص الحقيقي
وهذا يسرُّني كما يسرُّكِ .ومهما لامني الناس على حدة طبعي
فلا حق لهم ان يلوموني على صرامتي لانني اقضي بالعدل حينما
يجب العدل وبالرحمة حينما تجوز الرحمة

فقالت لهُ دع مدحك لغيرك فقد يعدُّ الناس عدلك
جورًا ورحمتك هوًى . فقال لها وانتِ لا تفتخري علينا كأنَّ

فارسكِ خرج من الميدان منصوراً لان كنراد منسرات (هو المركيز) بطل صنديد وقرم عنيد فما يصيبكِ اذا قهر هذا الاسكتسي. فقالت ان ذلك ضرب من المحال لانني انا رأيت كنراد يرتجف كالقصبة فهو مجرم والمبارزة ليست الاّ بقضاء الله والله يسكب كأس غضبهِ على رؤوس المجرمين. ولو دُعيت انا لمبارزتهِ لما تأخرتُ. فقال هذا لا ريب فيهِ لانني لم أرَ اعرق منكِ في نسب بلنتجنت ولكنني آمُلُ انكِ لا تنسين بُعْدَ منزلتكِ عن منزلة هذا الفارس. فقالت ما معنى هذه النصيحة في مثل هذا الوقت فهل تعدُّني من خفيفات العقول اللواتي يتقلّبنَ مع الاهواء. فقال كلاّ ولكن اريد منكِ ان تقولي لي ماذا تكون منزلة هذا الفارس عندكِ اذا خرج من الميدان منصوراً. فاحمرّت خجلاً وقالت لا تكون منزلتهُ عندي اكثر مما تكون عند الملكة برنغاريا لو حارب باسمها عوضاً عن ان يحارب باسم فتاة حقيرة مثلي وانت تعلم ان احقر الفرسان يمكنهُ ان يحارب باسم اعظم الملكات. فقال ولكنّ هذا الفارس قد تحمّل مشقّات كثيرة من اجلكِ. فقالت وانا جازيتهُ على قدر طاقتي فكنت افرح لسرّائهِ واحزن لضرّائهِ

وهذا كل ما ينالهُ مني . فقال الملك كذا تقول البنات ولكن اذا اتاهنَّ طالب راغب وألحَّ الطلب قلنَ هذا نصيبنا . فقالت كن مطمئن البال يا ابن العم فانا ليس من نصيبي ان اتزوَّج باحد الاَّ من ملَّتي ومن منزلتي والآن ارجوك ان تدعني اسمع صوت المغني فانهُ اطرب لاذني من صوت توبيخك

الفصل السادس والعشرون

جرى الاتفاق على ان تكون المبارزة بعد شروق الشمس بساعة لشدة الحرّ في ذلك الغور . وكان طول ميدان المبارزة مئتي خطوة وعرضهُ سبعين خطوة وهو ممتدّ شمالاً وجنوباً لكي لا يتعرَّض احد المبارزين لاشعة الشمس اكثر من رفيقهِ . ونصبوا شرقي الميدان عند منتصفهِ خدراً للملكة والنساء اللواتي معها لكي يرينَ المتبارزَيْن والجموع المحتشدة ولا يراهنَّ احد فلم ترضَ الملكة بذلك لان المرأة تحب ان تُرَى كما ترَى ولكنها سلَّمت بهِ مراعاةً لعوائد المشارقة . ونصبوا الى غربيهِ عرشاً للسلطان صلاح الدين وعلى جانبيهِ عرشين آخرين الواحد للملك ريكارد والآخر لدوق النمسا . ورأى الدوق ان

فرشة اوطأ قليلاً من عرش الملك فلم يرد ان يجلس عليهِ
وعرف ذلك الملك فتجاهل وقال الاجدر بنا ان نبقى على
فرسينا . ولما اشرقت الشمس قام الملك ريكارد ومضى الى
حيث كان الفارس الاسكتسي ورأى عدة حربهِ وجلادهِ
اما الدوق فلم يأتِ لرؤية المركيز لانهُ كان مترنحاً بخمر شيراز
التي قدمها لهُ السلطان . فاتى رئيس الهيكليين عوضاً عنهُ
فمنعهُ الحرس عن الدخول الى خيمة المركيز وقالوا ان مولاهم
قاصد أن يعترف امام الناسك الكرملي فاضطرب الرئيس لما
سمع ذلك ودخل الخيمة غصباً عنهم فرأى المركيز راكعاً امام
الناسك وقد همَّ ان يشرع في الاعتراف فانتهرهُ وقال لهُ ما
معنى هذا العمل ألا تعلم انني انا هنا فعلى مَ لا تعترف لي . ثم أمر
الناسك ان يخرج من هناك فقال الناسك للمركيز اذا كنت
لا تريد ان تعترف لي فانا اخرج ولكنني لا اخرج بامر هذا
الرئيس المتغطرس . فقال المركيز كيف العمل اخرج الآن
وسنلتقي في وقت آخر . فخرج الناسك بعد ان تهدَّدهما
بالعقاب . وجعل الرئيس يشجّع المركيز ويشدّد عزائمهُ وسرَّ
بانهُ منعهُ عن الاعتراف عند غيرهِ لان خفاياهما مشتركة .

ثم جاءت الساعة المعينة للمبارزة وبوقت الابواق واصطفت الفرسان حول الميدان وركب الفارسان ورفعا المغافر عن وجهيهما ودار كل واحد منهما ثلاث دورات وكان الفارس الاسكتسي طلق الوجه باسماً كانهُ ذاهب الى وليمة واما المركيز فكان عابساً مظهراً العظمة والعنفوان فلم يخف ذلك على الناظرين اليهما. وكان الناسك والكهنة الذين حضروا معهُ قد اقاموا مذبحاً بجانب خدر الملكة فاتى الفارسان الى هذا المذبح وحلف كلٌّ منهما على الانجيل الطاهر انهُ محق في عملهِ وطلب من الله ان ينصر المحق منهما. وحلفا ايضاً على انهما لا يستعملان الا الاسلحة العادية ولا يستخدمان السحر ولا الطلاسم. ودنا رئيس الهيكليين من المركيز وقال تشجع وتشدَّد والا فان قُهرتَ ونجوتَ من يد هذا الفارس فلا تنجو من يدي. وصلى الكهنة وطلبوا من الله ان يقضي بالعدل بين المتبارزين. ثم بوقت الابواق ونادى المنادي قائلاً ها قد اتى الفارس وليم الاسكتسي بالنيابة عن الملك ريكارد ملك انكلترا الذي ادَّعى على كنراد مركيز منسرات انهُ خانهُ واهان شرفهُ. ونادى المركيز مبرراً نفسهُ وقال انهُ

راضٍ بهذه المبارزة لتزكية قوله · وحينئذٍ تقدم حاملا الاسلحة
وقدَّما للفارسين رمحيهما وترسيهما وكان على ترس الفارس
الاسكتسي صورة النمر وسلسلة مقطوعة اشارة الى اسره
وعلى ترس المركيز صورة ارض كثيرة الاظلاف والصخور
ووقف الفارسان احدهما قبالة الآخر وارخى كلٌّ منهما مغفرهُ
على وجههِ فتغطيا بالحديد واحدقت بهما العيون وشخصت
اليهما الابصار · ثم أشار السلطان فبوّقت الابواق
وانقضَّ الفارسان احدهما على الآخر فالتقيا في حومة
الميدان وطعن كلٌّ خصمهُ طعنة ترقص لها عجائز وائل
فاستلقى الفارس رمح خصمهِ بترسهِ فتشظى الرمح شظايا
صغيرة من سنانهِ الى زجهِ · وتقهقر جواد الفارس سبع
خطوات ووقع على عجزهِ ولكنهُ انهضهُ حالاً فلم ينلهُ
مكروه · واستلقى المركيز رمح الفارس بترسهِ فخرق الترس
والدرع والزردية وجرحهُ جرحًا بليغًا في صدرهِ والقاهُ عن
ظهر جوادهِ فوقع يتمرَّغ بالتراب · ثم استلّ الفارس سيفهُ
ووقف فوق راسهِ وقال لهُ اعترف بذنبك. وكان السلطان
صلاح الدين والملك والدوق وغيرهم من الامراء قد

اجتمعوا حول المركيز وكشفوا الخوذة عن راسهِ فنظر الى السر
وليم وقال لهُ قد قضى الله بالعدل وانا المذنب ولكن في
مخيمنا مَنْ ذنبهُ اعظم من ذنبي فارحموني وأتوني باحد يعرّفني.
فالتفت الملك ريكارد الى السلطان صلاح الدين وقال لهُ
علينا بدوائك المشهور ايها السلطان لحفظ حياة هذا المركيز
ولو ساعةً من الزمان. فقال السلطان ان هذا الرجل
لا يستحق ان يحيا ولكني اكرامًا لك أستعمل لهُ الدواء. ثم نادى
خدمه وقال احملوهُ الى خيامكم فتقدَّم الدوق والرئيس وقالا
لا نريد ان تُستعمل لهُ ادوية مسحورة ولا ان يحمل الى غير
خيامنا. فالتفت اليهما الملك وقال ألا تريدان ان يعالج
ويشفى فقال الرئيس اذا اراد السلطان ان يعالجهُ فليكن
في خيامنا. فالتمس الملك من السلطان ان يتنازل الى ذلك ثم
نادى رجالهُ وقال بوّقوا بالابواق ونادوا بشرف انكلترا
والتفت الى السر وليم وقال لهُ هلمَّ ايها البطل الى حضرة
السيدات فهنَّ اعلم منّا بمجازاة الابطال. ولمّا صارا في حضرة
الملكة ناداها ونادى الاميرة جوليا وطلب منها ان تنزعا اسلحة
الفارس بيديها اكرامًا لما اظهرهُ من القوَّة والبسالة. فركع

امامها وجعلتا تنزعان اسلحتهُ كما امرهما الملك ولما نزعتا الخوذة عن راسهِ وبان وجههُ الصبوح من تحتها قال الملك أهذا وجه العبد النوبي او هو وجه فارس مجهول الحسب والنسب لا ومربة اجدادي هنا انتهت مدَّة تخفيك ايها الامير العظيم فقد ركعتَ امامنا ولا يُعرَف من امرك الاَّ ما اشتهرتَ بهِ من البسالة والاقدام قم مكللاً بالمجد والشرف. قم ايها البرنس داود ابن ملك اسكتلندا وولي عهدهِ

فاندهش جميع الذين سمعوا هذا الكلام وكانت الخوذة بيد الاميرة جوليا فسقطت من يدها لشدة دهشتها. فقال الملك نعم ايها السادة ان اسكتلندا وعدتنا ان تنجدنا بهذا الامير الجليل وبكتيبة من نخبة رجالها ثم عدلت عن عزمها فلم يرتضِ هذا الامير ان يغمد السيف الذي كان قد وطَّن نفسهُ على نجدتنا بهِ فجمع نفراً من الفرسان وغيَّر اسمهُ وانضمَّ الينا في جزيرة صقلية. ثم قُتِل كلُّ اتباعهِ ولم يبقَ معهُ الاَّ واحد منهم. وكاد هذا التخفي يجعلنا نقتل اشرف امير من امراء اوربا. لماذا لم تعرّفنا بنفسك ايها الامير أخفتَ من اننا نغتنم هذه الفرصة ونفتك بك لما بيننا وبين قومك من العدوان.

فقال الامير كلاَّ ايها الملك فان ذلك لم يخامر فكري قط
ولكن لم تسمح عزة نفسي ان اتخذ نسبي وسيلة للتكفير عن ذنبي
ولا سيَّما لانني آليت على نفسي ان ابقى متخفياً الى ان تنقضي هذه
الحرب ولم أُظهر مَن انا الاَّ عند الضرورة الشديدة وذلك في
سرّ الاعتراف لهذا الناسك . فقال الملك قد فهمنا الآن
لماذا كان الناسك يلحُّ علينا ان نحجب دمك ولماذا قال انَّنا
سنندم ونودُّ لو قُطِعت يدنا ولم نقتلك. نعم نود ان يقطع رأسنا
ولا يقال ان ريكارد قتل ولي عهد اسكتلندا لما كان في قبضة يده

فقالت الملكة أَلا يجوز لنا ان نعرف ايها الملك كيف
اتصلت الى معرفة اصل هذا الامير الجليل

فقال اتتنا رسائل من بلادنا تقول ان ملك اسكتلندا
قبض على ثلاثة من اشرافنا واخذهم رهناً مدعياً ان ابنه الذي
ظنه اولاً في جرمانيا هو معنا في هذه الحرب ثم ان ده فو
رأى خادم هذا الامير في عسقلان وكان قد ذهب اليها
ليكشف لده فو هذا السر الذي كان يجب عليه ان يكشفه لنا
ولا يتحمَّل مشقة السفر

فقال ده فو يجب ان تعذره. لانه يعلم انني الين قلباً من

آل بالتحبب . فصرخ الملك أ أنت الين منا قلباً معاذ الله
فنحن في السلم انسٌ وفي يوم الوغى جانُ نحن الينُ الناس قلباً
أليس الامر كذلك يا جوليا . قال ذلك والتفت اليها واخذ
يدها ويد البرنس داود بيده فصبغ الخجل وجنتيها وكلّل
العرق جبينها

وكان السلطان صلاح الدين قد أدب مأدبةً للملك
ريكارد ورجالهِ ودوق النمسا ورجالهِ فاتى الضيوف الى
مكان الوليمة فوجدوها خيمةً فسيحة الرحاب مفروشة بالبسط
الفاخرة وفيها سماط من الحرير الصيني الموشّى بالذهب وعليه
صحاف الطعام وكؤوس الشراب وهي من الذهب الابريز
والخزف الصيني النادر المثال . والشراب مبرّد بالثلج ومطيب
بالطيوب الغالية الاثمان . وحول السماط وسادات من الحرير
والكشمير ليجلس عليها الفرسان بدل الكراسي . وجدران
الخيمة مغطّاة بالاعلام والبيارق التي غنمها السلطان في حروبهِ
وفتوحهِ

وقبل ان يدخل الضيوف ركض نكتبانس القزم الى
السلطان وهو يقول باللاتينية "خذها خذها" ثم قصّ

عليهِ قصةً وهو يرتجف ويرتعد وحينئذٍ بوقت الابواق معلنة
قدوم الضيوف فقام صلاح الدين للقائهم وترحّب بهم وهنأ
البرنس داود (اي السر وليم) على الظفر. وقبل ان يشرعوا
في الطعام التفت البرنس الى الجلاّب الذي امامهم وكان مبرّداً
بقطع الثلج وقال عجباً ممّن لا يعرف الجليد ويبرّد شرابهُ بالثلج.
اشار بذلك الى ما جرى بينهما من الحديث بقرب دَرّة القفر.
فاجابهُ السلطان البس لكلِ حالة لبوسها وانا لم يحُسن بي ان
اكلمك حينئذٍ الاّ بما كلمتُك. فلما سمع دوق النمسا ذكر الثلج
التفت فرأى كؤوس الجلاّب مبردةً بهِ فتناول كأساً كبيرة وجرع
جرعة منها وناولها الرئيس الهيكليين فهمّ ان يشربها وكان صلاح
الدين واقفاً بجانبهِ فنادى القزم فاقبل وهو يقول باللاتينية
خذها خذها فارتعدت فرائص المركيز وادنى الكأس من فمهِ
ليخفي اضطرابهُ. وقبل ان تمسها شفتاهُ استلّ صلاح الدين سيفهُ
وضربهُ بهِ فاطاح رأسهُ عن كتفيهِ وبقيت جثتهُ لحظة قائمة
وقابضة الكأس. فاجفل دوق النمسا حاسباً ان رأسهُ يكون
الثاني ووضع بقية الفرسان ايديهم على سيوفهم فالتفت اليهم
السلطان وقال لا تخف ايها الدوق وانت ايها الملك لا تغتظ

مّما جرى فانني لم اقتل هذا الخائن لانهُ حاول قتلك غدراً ولا
لانهُ تبغني وتبع هذا الامير (مشيراً الى البرنس) وحاول الايقاع
بنا ولا لانهُ جيّش الموارنة علينا في هذا الوقت حتى اضطررت
ان اضع جيوشي على مقربةٍ منّا خوفاً منهم بل لانهُ منذ اقل من
نصف ساعةٍ طعن مركيز منسرات طعنة قضت عليهِ لكي
لا يعترف بالمكايد الكثيرة التي كان مشتركاً معهُ فيها

فصرخ ريكارد أَقُتِل كنراد أَوَ قتلهُ هذا الرجل. انني
لا اشكّ في قولك ايها السلطان المعظّم ولكن لا بدّ من اقامة
البيّنة على ذلك والّا اضطررتنا الى ما لا نحب

فقال السلطان ان الله سبحانهُ وتعالى يكشف الخفيَّات
وما على الله امرٌ عسير. ثم قصّ عليهم ما اخبرهُ بهِ القزم وهو
انهُ دخل خيمة المركيز فوجدهُ نائماً بفعل الدواء ولم يجد عندهُ
احداً ثم رأى رئيس الهيكليين مقبلاً فاختفى في زاوية من الخيمة
بحيث يرَى ولا يُرَى فدنا الرئيس من المركيز ففتح المركيز
عينيهِ وكأنهُ اوجس منهُ خيفةً فجعل يتوسَّلُ اليهِ ان يرفق بهِ
فقال لهُ الرئيس قد اتيتُ لاحلّك ثم طعنهُ بخنجرهِ في صدرهِ
وهو يقول خذها خذها فقتلهُ . وان كنتم في ريبٍ من ذلك

فانظروا في جثة المركيز . فقال الملك ريكارد انا متأكد من صدق مقالك ولكن على من قتلته بيدك وعلى من قتلته هذه الساعة . فقال السلطان انه لو اكل من طعامي وشرب من شرابي لحرم عليَّ قتله ولزمتني حمايته ولو كان قاتلاً ابي . ثم امر فرفعوا الجثة وازالوا البسط الملطخة بالدماء واقام لضيوفه بحقوق الضيافة ولكن كانت افكارهم مضطربة فلم يلتذوا بطعام ولا بشراب

وفي اليوم التالي عقدت شروط الصلح بين السلطان صلاح الدين والملك ريكارد ومن معه من الامراء الصليبيين كما هي مقررة في كتب الاخبار . وعاد الصليبيون الى اوطانهم واقترن البرنس داود بالاميرة جوليا وارسل اليهما السلطان صلاح الدين هدية نفيسة وفي جملتها الطلسم الذي شفي به الملك ريكارد . وهو حجر صغير مثلث الشكل احمر اللون. ولم يزل هذا الحجر في اسكتلندا الى يومنا هذا

انتهى

الخاتمة

قد لخّصنا هذه الرواية من رواية انكليزية شهيرة اسمها الطلسم (تلسمن) للكاتب البليغ السر ولتر سكوت وتصرّفنا فيها بزيادة واسقاط وتغيير وابدال لتوافق ذوق القرّاء في هذه البلاد. وهي تطابق الحقائق التاريخية في اكثر وقائعها واشهر مخالفتها لها في ان دوق النمسا لم ينصب علمه بجانب علم الانكليز في وسط المحلّة بل على اسوار عكاء. ومركيز منسرّات لم يقتله رئيس الهيكليين بل اغتاله اثنان من الخوارج في مدينة صور. وصلاح الدين لم يقتل رئيس الهيكليين بل قتل زينو ده شاتيليون امير الكرك. ومن جملة فوائد هذه الرواية الجليلة تفصيل عوائد الناس في تلك الايام وتمثيل احوالهم احسن تمثيل فعسى ان تقع عند القرّاء الكرام موقع القبول والاستحسان

م

الإشـــــراف اللغـــوى : عبد الرحمن حجازى

الإشـــــراف الفـــنـى : حســـــن كـــامـل

التصميم الأساسى للغلاف : أســامــة العــبـد

والتر سكوت

قلب الأسد

رواية

هذه الرواية التى كتبها والتر سكوت عام 1835، هى الرواية الوحيدة التى كتبها حول الحروب الصليبية، ولأن الكاتب اعتاد أن يجعل أبطاله دائمًا من النبلاء المتخاصمين فيما بينهم، مثلما حدث بالنسبة لفرسان المائدة المستديرة، فإنه حوَّل الحرب بين الصليبيين والمسلمين إلى مواجهة بين نبلاء، خاصة الملك ريتشارد قلب الأسد، وصلاح الدين الأيوبى؛ حيث فقد كل من الاثنين الشعور بالعداء الذى يود فيه كل منهما تدمير الآخر، ولكنه يسعى للانتصار على منافسه، خاصة صلاح الدين الذى تسلل ليلاً وسط الجيوش الصليبية، وهو يحمل معه الدواء اللازم لعلاج خصمه.

تصميم الغلاف: نسرين